الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
-قسنطينة-

كليـــة الآداب والعلوم الإنسانية
قســـم: اللغة العربية

الإعجاز اللغوي في سورة هود

-دراسة وصفية تحليلية-

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

في اللغة والدراسات القرآنية

إعداد الطالب:
حاج بن سراي

إشراف الأستاذ:
الدكتور رابح دوب

لجنة المناقشة	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
حسن كاتب	أستاذ محاضر	رئيسا	جامعة منتوري- قسنطينة
رابح دوب	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
باديس فوغالي	أستاذ مكلف بالدروس	عضوا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
العلمي لراوي	أستاذ محاضر	عضوا	المركز الجامعي بأم البواقي

السنـــة الجامعيـــة:

1424-1425هـ/2003-2004م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

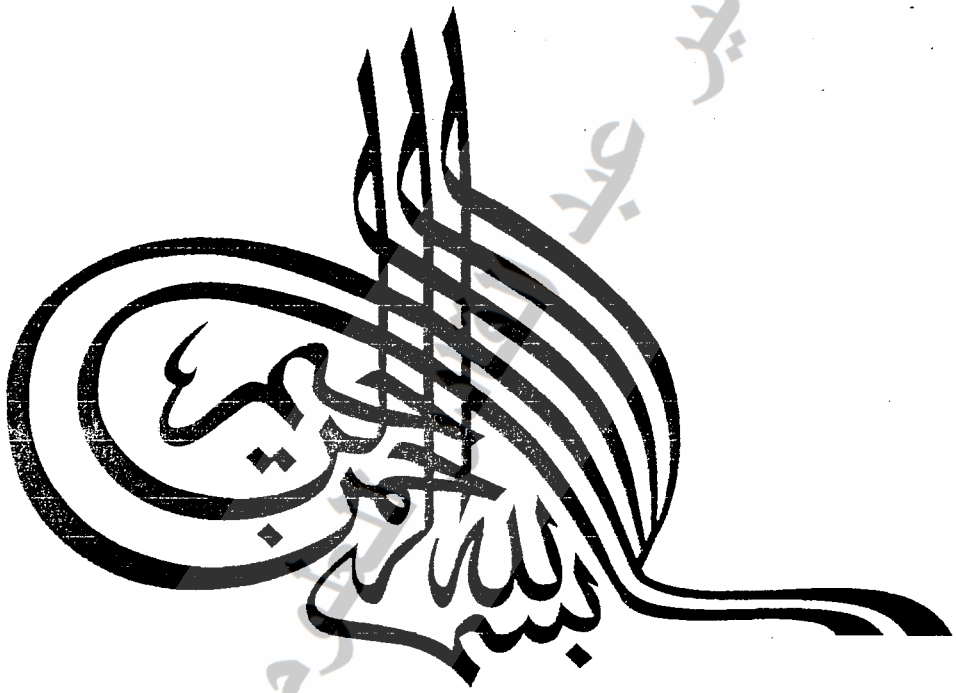

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى والديَّ . .

كما ربّياني صغيرًا . . .

كما علّماني حُبَّ الكتاب صبيًّا .

إلى إخوتي . . حين كانوا ليَ السَّند المعنويَّ القويَّا .

إلى زوجتي . . التي ما أتت بعدُ . . لكنّها سوف تأتي قريبًا إليّا .

إلى المخلصين . . ومن ينشدون الحقيقة والصدق في كلِّ جيلْ

إلى الباحثين عن الحقّ والنور . . بين غياهب ليل طويلْ

إلى من يجاهد بالعلم . . . فالحبر مثل دم الشهداء يسيلْ

إلى من تعلّم حبَّ الكتاب وعلّمه . . . فأنار السبيلْ

إليكم جميعا . . أقدّم باكورة البحث والجدّ والإجتهادِ

من هنا أبتدي . . وعلى المستعان اعتمادي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مُقَدِّمَة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله المتوحّد في الجلال بكمال الجمال تعظيما وتكبيرا ، المتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديرا وتدبيرا ، المتعالي بعظمته ومجده ، الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وسلّم تسليما كثيرا .

القرآن الكريم هو كتاب الله المبين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كتابٌ أحكمَ آياته وفصّلها الحكيم الخبير ، وأنزله –بعلمه– على خير خلقه نورا وهدى للناس ؛ ففتح به أعينا عميا وآذانا صمًّا وقلوبا غلفا ، وجعله المعجزة الخالدة الشاهدة على صدق رسالة هذا النبي الأميّ –ﷺ– فما من نبيٍّ إلاّ وأوتي من المعجزات والآيات ما مثله آمن عليه البشر، وكان الذي أوتيه نبيّنا محمد –ﷺ– وحيا أوحاه الله إليه ، مصدّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه.

وما من نبي إلا وأرسل بلسان قومه ليبيّن لهم ، وقد أنزل الله –ﷻ– آخر كتبه على خير رسله بلسان عربي مبين ؛ فدمغ ببلاغته أئمة الفصاحة ، وأعجز بلفظه ومعناه أساطين البيان .

ثمّ كان لهذا الكتاب الكريم من الفضل على اللغة العربية التي جُعلت وعاء له ما يقصر عنه الوصف ، فقد نشأت الدراسات النحوية والبلاغية في رحاب الكتاب العزيز ، وانبرى العلماء لخدمة اللّغة خدمةً لكتاب ربّهم ؛ فازدهرت بذلك الدراسات اللغوية وشقّت طريقها نحو التطوّر والكمال . ولعلّ من أهم الدراسات التي شغلت الباحثين قديما وحديثا ما تعلّق بقضيّة إعجاز القرآن الكريم خاصّة في الجانب اللّغوي ، فلقد كانت ميدانا للبحث خصبا ، ومجالا للدراسة حيويا ؛ أفنى فيه العلماء مداد أقلامهم .

وفي هذا الإطار تأتي دراستي التي اصطفيت لها عنوان " **الإعجاز اللّغوي في سورة هود** " عسى أن تضيف –على تواضعها– إلى جهود الباحثين في هذا الميدان الشريف الرفيع ما اعتقد بأنّنا ما نزال بحاجة ملحّة ودائمة إليه.

أولا- أهميّة الموضوع :

تكمن أهمية الدراسات التي تعالج قضايا إعجاز القرآن في ما تكشفه من عظمة هذا الكتاب الخالد والتدليل على مصدره ، وإقامة الحجّة على أنّه لا يمكن أن يكون نتاج جهد بشر يعتريه النقص في سائر أحواله ، وفائدة هذه العملية أن يتنامى لدى قارئ القرآن الإيمان العميق بأنّه من تنزيل العزيز الحميد،وتلك أولى الخطوات التي يخطوها السائرون في سبيل الهدى إلى ربّهم،وقد نصّ القرآن الهادي

للتي هي أقوم على ذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الحج:54].

كما تكمن أهمية هذا النوع من دراسات الإعجاز القرآني –اللّغويّة أعني– في ما تكشفه من بدائع التعبير القرآني ، والوقوف على جمالياته الباهرة ، واستجلاء بيانه البديع ، وتأمّل لوحاته الفنيّة الخالبة ، وهل أُنزل القرآن إلاّ ليُتدبّر ؟ ألا وإنّ من أجلّ ما ينبغي تدبّره في كتاب الله معرفة إعجازه اللّغوي .

ومن هذا المنطلق تتجلّى أهميّة هذا الموضوع الذي تصدّيت لدراسته–على قلّة الزاد وضعف البصيرة– من حيث محاولتهُ الكشفَ عن بعض مظاهر الإعجاز اللغوي في سورة من سور القرآن المكّي ، والوقوف على ما بلغته من مراتب عالية في حسن اختيار الحرف والمفردة والفاصلة ، وما ارتقت به ذرى الكمال في أساليب الجدل والقصّة ، وتتبّع فنون العرض والتصوير في آياتها الكريمة ، وفي تعبيرها الجميل المشرق.

ثانيا- أسباب اختيار الموضوع:

كانت أهميّة هذا الموضوع دافعي الأول إلى الإقبال عليه ، ومحفّزي الأكبر على خوض غماره ، بيد أنّ هناك أسبابا أخرى ذاتية وموضوعية أكّدت هذا الاختيار ورشّحته ، من الممكن إجمالها فيما يأتي :

الأسباب الذاتية :

هي رغبة كمينة في الصدر لازمتني منذ الصبا ، فطالما كنت آوي إلى والدي وهو يقرأ القرآن الكريم ، فأعجَبُ لروعة كلماته ويهزّني شجى نغماته ، وعشت في ظلاله أقرؤه وأتطلّع إلى منابع السحر فيه ، إلى أن بلغت المرحلة الجامعية في دراستي ، ودفعتني تلك الرغبة الجموح إلى اختيار شعبة اللغة والدراسات القرآنية . وكان من نعمة الله علينا أن تتلمذنا على يد الأستاذ الدكتور رابح دوب الذي كان يدرّسنا مادتي الإعجاز اللغوي ، والدراسات البيانية للقرآن الكريم . وقد غذّى ما كان يلقيه علينا من دروس ومحاضرات شغفي بالبحث في هذا المجال الشريف ، وجاءت مرحلة الدراسات العليا التي منحتني فرصة تحقيق تلك الرغبة الملحاحة ، فكان اختياري لهذا الموضوع .

الأسباب الموضوعية :

1- حاجـــة المكتبة الإسلامية عموما ، والقرآنية بصفة خاصّة إلى هذا النوع من الدراسات الـــتي تســـهم في إبراز عظمة القرآن ، والتنبيه على علوّ منزلته وروعته ، فما أحوج إنسان اليوم إلى العودة إلى هذا المنبع الثرّ الأصيل ، ليكون هاديا له إلى الخير والصلاح ، ولا جرم أنّ لفت انتباه الناس إلى عظمة القرآن وسحر بيانه سيدفعهم قُدُمًا إلى الاهتمام به والاطلاع على كنوزه .

2- غـــنى القرآن الكريم ، وتجدّد عطاءاته التي تنتظر من يُخرج خبأها ، أوليس هو الكتاب الذي لا تشبع منه العلماء ، ولا يملّه الأتقياء ، ولا تنتهي عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه ؟

3- آثـــرت أن تخـــصّ دراستي سورة واحدة من سور القرآني المكي ؛ حتى أتمكّن من تتبع مظاهر الإعجاز فيها ، ولا يجري بي القلم أشواطا بعيدة عن لباب البحث ، على أنّ اختياري لسورة هود بالذات لم يكن وليد الصدفة ولا جاء اعتباطا ، فقد أودع فيها الحقّ -جلّ شأنه- من الخصائص والمـــزايا مـــا يُغري بالبحث ، وما يُرغّب في الغوص والتنقيب ، فإنّ ما تحتوي عليه من بديع النظم والتعـــبير ، وروائـــع فن التصوير ، وجمال العرض والأداء وسحر التأثير ، وجلال الإعجاز المطلق ما يُحـــيِّر الألـــباب ويُدهش العقول . وهي التي نزلت في مرحلة عصيبة من مراحل الدعوة الإسلامية المـــباركة متضمّنةً آية من آيات التحدّي الخالد ، فكانت متراسًا منيعا للنبي -ﷺ- وأصحابه الطُهر الأبرار.

ثالثا : الدراسات السابقة :

اهـــتمّ كثير من الباحثين قديما وحديثا بدراسة الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم ، فمنهم من اتّخذ من أساليبه البيانية البديعة مادة للدرس ، و من نكته اللغوية مجالا للبحث ، ومنهم من جعل من تعبيره المعجز منطَلَقا لتأسيس نظرية من نظريات اللغة أو اكتشاف سرّ من أسرار الكتاب.

ومـــن أهمّ الدراسات التي جاد بها القدامى كتاب "دلائل الإعجاز" للجرجاني ، و"إعجاز القرآن " للباقلاني .

أما الدارسات الحديثة فنجد تفسيري "التحرير والتنوير" للطاهر بن عاشور ، و "في ظلال القرآن" لسيد قطب" من أهم التفاسير التي زخر ت ببيان بلاغة القرآن وإعجازه . كما يعتبر كتاب " النبأ العظيم " لمحمد عبد الله دراز من الكتب القيّمة في هذا الميدان .

وقـــد وجـــدتُ دراسة حديثة جيّدة قام بها الدكتور : عودة الله بن منيع القيسي بعنوان : " الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام في القرآن الكريم " وهذا الكتاب –في الحقيقة – إنّما كان دراسة للإعجاز اللغوي في قصّة نوح –عليه السلام- في سورة هود فقط.

أمّـــا الرســـائل الجامعية فما تسنّى لي الاطلاع عليه منها كان يدور في فلك بيان الإعجاز اللغـــوي في نوع من أنواع آي القرآن الكريم : كدراسة " الإعجاز البياني للآيات الكونية في القرآن الكـــريم" وهي رسالة ماجستير أعدّها الطالب : خالد بن عمير ، وقدّمها بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة سنة 1422هـ/2001-2002م ، ورسالة الماجستير التي أعدّها الطالب : عمار ساسي وهـــي بعنوان :" دراسة الإعجاز البياني في بعض آيات الأحكام" والمقدّمة بمعهد اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر سنة : 1992/1991م .

رابعا : أهداف البحث :

إنّ غايتي الأساسية من ولوجي عالم البحث في الإعجاز اللغوي للقرآن ، لا تكاد تخرج عن غايـــة من سبقوني إليه ، فإبراز عظمة القرآن أن تحاوله طاقات البشر ، وإقامة البرهان على كونه من لـــدن الحكيم الخبير ، تلك هي الغاية التي قصدها جلُّ من طرق باب البحث في إعجاز القرآن ، على أنّ هناك أهدافا أخرى رجوت تحقيقها في هذا البحث أهمها :

1- محاولـــة التأكـــيد على ثبوت المعجزة اللغوية ، ودورها في بقاء وخلود النص القرآني ، واستمرارية إعجازه .

2- محاولـــة بيان الأهمية الكبرى للإعجاز اللغوي في سورة هود ، من خلال الوقوف على حقائق ودقائق التعبير القرآني ، وجماليات أدائه وتأثيره .

3- محاولة الوقوف على صور ومظاهر الإعجاز اللغوي في السورة ، وتلمّس مواطن البيان والجمال فيها.

4- محاولة تدبر أساليب الإعجاز القرآني وفنيّة العرض والتعبير فيه ، عملا بقوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: 82].

5- إضـــافة دراســـة علمية أكاديمية إلى مكتبة القرآن الكريم ، وبحث آخر يضمّ إلى جهود الباحثين في هذا الميدان الشريف ، وإن لم يبلغ الضالع شأو الضليع .

البديعة التي استعملها القرآن في السورة . وأحسب أنّ هذا الإعجازَ اللغويَّ المفترضَ وجودُه في السورة شاملٌ لكلّ النص القرآني ، بدءا بجزئياته وانتهاء بعمومه وكلياته.

سادسا : منهج الدراسة وخطة البحث :

بالنظر إلى الأهداف والمقاصد التي أبتغي تحقيقها من هذا البحث ، وباعتبار الفروض التي قدّمتها لحلّ إشكاليته ومحاولة الإجابة على جملة التساؤلات فيه ، رأيت أن وصف الإعجاز القرآني عموما واللغوي منه بصفة خاصّة -كظاهرة في القرآن الكريم لا تخلو منها سورة من سوره- هو ما توجبها طبيعة البحث . فاعتمدت **المنهج الوصفي في محاولة تشخيص ظاهرة الإعجاز** ، والتطرّق لأهمّ مميزات الأسلوب القرآني ، ومحاولة بيان معاني الأساليب البيانية الموجودة في السورة كالتمثيل والقصّة ...الخ .

كما حتّمت طبيعة هذه الدراسة – وموضوعها سورة قرآنية- أن يكون للتحليل بأدواته محاولة الاستدلال بالنصوص القرآنية المقدّسة على ثبوت الإعجاز ووجوده ؛ فاعتمدت المنهج **التحليلي** في الجانب التطبيقي من البحث حين قمت بدراسة الآيات القرآنية لاستنباط الإعجاز الموجود فيها ، والوقوف على مواطن الجمال خلالها.

وقد قسّمت هذا البحث إلى ثلاثة فصول يتقدّمها مدخل وتذيّلها خاتمة ، وجزّأت كلّ فصل إلى ثلاثة مباحث ، ثمّ شطرت كل مبحث إلى مطلبين أو أكثر حسب ما تقتضيه أهميّته و المادة العلمية التي احتواها ، ولذلك ربّما زاد حجم بعض المباحث على بعض .

وقد جزّأت المدخل إلى مبحثين : جعلت الأول منهما للحديث عن الإعجاز والتحدّي والمعارضة ، و ثانيهما لتقديم السورة محلّ الدراسة وبيان أهمّ متعلّقاتها .

وقد رأيت وجوب الانطلاق من الجزء إلى الكلّ في عملية البحث والتحليل ، فتحدّثت في الفصل الأول عن الحروف والمفردات والفواصل ، ثمّ حاولتُ أن أحلّل أهمّ الأساليب التي حفلت بها السورة حاملة لدليل الإعجاز فدرست أسلوب الجدل والأسلوب القصصي ، وأسلوبي الالتفات والتوهيم ، مع ملاحظة أنّ اختياري الأخيرَ وإدراجه في الدراسة رغم قلّته وندوره ؛ كان بسبب أهميّته -حسب رأيي- وليكون محلّ اهتمام وعناية من قبل الدارسين ، فلا تطويه ظلمة الإهمال والنسيان . وأمّا الفصل الثالث فحاولت خلاله دراسة الأسلوب التعبيري القرآني ، إذ بحثتُ فيه عن الأداء وتميّز العرض القرآني مستدلاً بما توفّرت عليه سورة هود من مميزات وخصائص ، كما تعدّد

أخـــيرًا عن التأثير الخارق للتعبير القرآني في النفس البشرية ضاربا الأمثلة الحيّة لذلك التأثير المعجز . سورة هود .

ثمّ ضمّنتُ خاتمة البحث حوصلة لأهمّ ما توصّلت إليه من نتائج .

وأما الجانب الشكلي المنهجي فقد بذلت جهدي ليكون حسنًا –وقد عزّ الكمال!– ، وهذه أهمّ الطرق التي اتّبعتها في إخراجه :

1– بالنسبة إلى الاقتباس من المصادر والمراجع : إن كان النقل حرفيا أثبته بين مزدوجين ، وإن كـــان النقل بالمعنى أثبته في المتن دون علامة التنصيص ، واكتب في الهامش : (انظر:...) . أمّا ثبت المراجع في الهامش ، فقد استحسنت الطريقة الآتية و التزمتها : فأبدأ بعنوان الكتاب ، فمؤلّفه ، فمحققـــه –إن وجد– ، فدار النشر والبلد الذي نشر به ، فرقم الطبعة وتاريخها –إن وجدا– ثمّ الجزء والصفحة . هذا عند ذكر المرجع للمرّة الأولى ، أمّا إن تكرر ذكره فأكتفي بذكر العنوان –والمؤلّف أحيانا– والصفحة .

2– بالنسبة للآيات القرآنية الكريمة : أذكر السورة في المتن بعد الآية ، ورقم الآية مباشرة بعد السورة –على رواية حفص عن عاصم– .

أمّا أهمّ المراجع التي اعتمدتها في هذا البحث وأمدّتني بمادة علمية نفيسة ، فمنها:

❖ كتـــب الإعجـــاز وبخاصّـــة : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني والجرجاني . وإعجاز القرآن للباقلاني ، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ، والإعجاز الفنّي في القرآن لعبد السلام ، والإعجاز اللغوي في قصص نوح لعودة الله القيسي .

❖ كتب التفسير وبخاصة الكشاف للزمخشري ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، وفي ظلال القرآن لسيّد قطب .

❖ كتب علوم القرآن : واعتمدت منها اثنين هما : البرهان للزركشي ، والإتقان للسيوطي .

❖ واعتمدت من المعاجم لسان العرب لابن منظور .

❖ كما أفدت كثيرا من كتابي سيد قطب : التصوير الفني ومشاهد القيامة ، وكتاب النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز .

سابعا : شكر وعرفان :

أتقـــدّم بين يدي المنعم جلّ شأنه ومن قال:﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:7] بـــالحمد الكثير القاصر على ما أسبغ من فضله ونعمائه ، وما أولى من عظيم إحسانه و آلائه ، وما صحّ عون الخالق المرء إلا وجد عسير الآمال ميسّرا .

ثمّ أتقـــدّم بالشـــكر الجـــزيل والعرفان الخالص إلى من ليس تجزيه يدي ولساني : أستاذي المشـــرف الأستاذ الدكتور رابح دوب الذي أعانني على زرع البذرة الأولى لهذا البحث وتعب معي عـــلى إخراجه للوجود . وهو الذي أنعم عليّ مرّتين : أولاهما حين درّسني في مرحلة التدرّج ، وفي السنة التحضيرية للماجستير ، والأخرى حين قبل الإشراف عليّ ، فأسأل الله أن يؤتيه أجره مرّتين ، وأن يجزيه خير الجزاء وجزاء الخير .

كما أشكر كلّ من ساعدني على إتمام هذا البحث وصبر معي عليه وقاسمني همّه ، فأعترف بالفضل للأساتذة الأفاضل : ناصر لوحيشي ، وعبد الوهاب بوشليحة، و عبد العزيز العيادي ، وعبد الـــرزاق عكّـــة ، وحمودة بن حمودة ، وعبد الوهاب بن حدوش . أشكرهم على مساعدتهم المادية والمعنوية وما جادوا به عليّ من النصح والتشجيع والتوجيه .

فشـــكر الله لكـــل من أعان على هذا البحث -ولو بالكلمة الطيبة- وجعل ذلك في ميزان حسناته يوم القيامة .

والحمد لله أولا وآخرا .

مَدْخَلْ

- الإعجاز والتحدي

- بين يدي السورة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كـــان لزاما عليّ – قبل الانطلاق في استجلاء فصول هذا البحث واستقصاء جوانبه – أن أقدّم له بتمهيد أبيّن فيه معنى المعجزة والإعجاز ، ومفهوم التحدي والمعارضة ، وأقف وقفة بين يدي سورة هود لمعرفة أهم ما يتعلق بها من التسمية والأغراض والمكي والمدني...الخ.

المبحث الأول

الإعجاز والتحدي

المطلب الأول: مفهوم الإعجاز ووجوهه :

أولا : مفهوم الإعجاز:

1-تعريف المعجزة:

ا- لغة:

جاء في لسان العرب :" العجز نقيض الحزم ، وعجز عن الأمر يعجزُ عجزًا فيهما ، ورجل عَجِزٌ وعَجُزٌ : عاجز ، ومَرَّةٌ عاجزٌ وعاجزة عن الشيء ، وعجّز فلان رأي فلان إذا نسبه إلى خلاف الحزم ، ويقال أعجزت فلانا إذا ألفيته عاجزا ...والتعجيز: التثبيط، ذلك إذا نسبته إلى العجز . وعجَّز الرجلُ وعاجَزَ : ذهب فلم يوصل إليه ...ومعنى الإعجاز : الفوت والسبق ؛ يقال أعجزني فلان أي فاتني . ومنه قول الأعشى : فذاك ولم يعجز من الموت ربه ولكن أتاه الموت لا يَتَأَبَّقُ

وقال الليث : أعجزني فلان أي عجزت عن طلبه وإدراكه ".[1]

ب- اصطلاحا:

قال السيوطي(911هـ):" اعلم أنّ المعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدّي ، سالم عن المعارضة".[2]

وأمـــا الإعجـــاز فهو في معناه العام " إفعال من العجز الذي هو زوال القدرة على الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير ".[3]

---

1) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، -دت- 4/ 2817 . والقاموس المحيط مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي، دار الكتاب العربي -دت- ، 2/ 181.

2) الإتقـــان في علـــوم القرآن ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، 1418هـ - 1997م، 4/ 16 .

3) بصائر ذوي التمييز ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، دت ، 1/ 65 .

وقـــال الرافعي : " وإنما الإعجاز شيئان : ضعف القدرة الإنسانية عن محاولة المعجزة على شدة الإنسان واتصال عنايته ، ثمّ استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه ".[1]

2- معجزة النبي محمد - ﷺ- :

أراد الله - ﷻ- لـــلحق أن يعلـــو ويثمر وللباطل أن يُخذل وينحني ، فأيّد رسله وأنبياءه بدلائـــل وحجج النبوة ، وأمدّهم بأسباب النصر والغلبة .وكان من أهمّ عوامل التأييد ما أجراه الحق على يد أنبيائه من آيات ومعجزات .

عـــن أبي هريـــرة -رضـــي الله عنه- أنّ النبيﷺ قال: " **ما من الأنبياء نبي إلاّ أُعطي من الآيـــات مـــا مثله آمن عليه البشر ، وإنّما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة** ".[2]

قـــال الطاهر بن عاشور عن هذا الحديث:" فيه نكتتان غفل عنهما شارحوه . الأولى : أنّ قوله –عليه الصلاة والسلام- (ما مثله آمن عليه البشر) اقتضى أنّ كل نبي جاء بمعجزة هي إعجاز في أمـــر خاص كان قومه أعجب به وأعجز عنه ، فيُؤمنون على مثل تلك المعجزة ، ومعنى "آمن عليه" أي: لأجله وعلى شرطه... الثانية: أنّ قوله :(إنما كان الذي أوتيته وحيا) اقتضى أن ليست معجزته مـــن قبيل الأفعال كما كانت معجزات الرسل الأولين أفعالا لاأقوالا كقلب العصا وانفجار الماء من الحجر وإبراء الأكمه والأبرص ، بل كانت معجزته ما في القرآن من عجز البشر عن الإتيان بمثله".[3]

فمعجزات الأنبياء الحسيّة محدودة بقوم معيّنين ومؤقتة بزمان معيّن ، ومعجزة محمد- ﷺ- عامة وخالدة تتناسب مع عظمة رسالته وشمولها وخلودها . قال أحمد شوقي:

جَاءَ النَبِيُّونَ بالآيَاتِ فَانْصَرَمَتْ ... وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ

آيـــاتُهُ كُلَّمَا طَالَ المَدَى جُدُدٌ ... يَزِينُهُنَّ جَلاَلُ العِتْقِ والقِدَمِ .[4]

لكن كفار مكة رفضوا الإيمان بالمعجزة العقلية الخالدة وطلبوا أن تأتيهم معجزة حسيّة وقد حكى القرآن قولهم : ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:5] ، فجاءهم الـــردّ

---

1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:1 ، 1421هـ-2000م ، ص98 .

2) رواه البخاري تحت رقم 4981 ، كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحي وأوّل ما نزل ، المكتبة العصرية ، بيروت ،1412هـ-2001م ، 3/ 1607. .

3) التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية ، تونس ، 1984 . 1/ 128 .

4) الشوقيات ، أحمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط:10، 1404هـ-1984 م ،146/1

الحاسم من عند الله -عز وجل-: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:50-51] " فأخبر أنّ الكتاب آية من آياته، وعلم من أعلامه، وأنّ ذلك يكفي في الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء، صلوات الله عليهم ".[1]

قال شوقي :

الذكر آية ربك الكبرى التي ... فيها لباغي المعجزات غناءُ
صدرُ البيانِ له إذا التقت اللغى ... وتفرّدَ البلغاءُ والفصحاءُ
نُسخت به التوراة وهي وضيئة ... وتخلّف الإنجيل وهو ذُكاءُ .[2]

ثانيا: وجوه الإعجاز في القرآن :

من أعقد المسائل التي واجهت الباحثين في هذا الموضوع ما تعلق بمعرفة وجه الإعجاز في القرآن.قال الخطابي(388هـ):"قد أكثر الناس في هذا الباب – قديما وحديثا- وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعدُ صدروا عن ريٍّ، وذلك لتعذّر معرفة وجه إعجاز القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته ".[3] وقال بن عاشور:"لم أر غرضا تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت لها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى، واقتنعت بما بلغته من صبابة نزرا، مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن، فإنّه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل وموردها للمعلول والناهل ".[4]

بيد أنّ ما يهمّنا في هذا البحث هو التركيز على الوجه الذي اتّفق عليه أكثر العلماء وهو الجانب اللغوي،أي أنّ القرآن الكريم معجز ببلاغته وبيانه، قال صاحب التحرير والتنوير : " وأمّا الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق، واقتصر عليه أئمة الأشعرية وإمام الحرمين، وعليه الجاحظ وأهل العربية... فالتعليل لعجز المتحدّين به بأنّه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز

---

1) إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق:عماد الدين أحمد حيدر،موسسة الكتب الثقافية ،ط:1 ،1411هـ- 1991م، ص37.
2) الشوقيات لأحمد شوقي ،1/ 37 .
3) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، (بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمدبن إبراهيم الخطابي) ، تحقيق : محمد أحمد خلف الله و محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط:4 ، ص21 .
4) التحرير والتنوير لابن عاشور ،1/ 101 .

عنه قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله ، وهو الذي نعتمده ونسير عليه".[1]

وقد نصّ أبو هلال العسكري(395هـ) على أنّ البلاغة تدرس للاستدلال بها على إعجاز كتاب الله تعالى المدلول به على صدق الرسالة وصحّة النبوة وقال : " إنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمّنه من الحلاوة ، وجلّله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيّرت عقولهم فيها ".[2]

إنّ الإعجاز اللّغوي و البلاغي عنصر قائم في كل سور القرآن ، وهو مناط براعة المتحدّين به ، وبه وُصف القرآن من قِبلهم بأنّه سحر ، وكان مهوى أفئدتهم في الاستماع إليه ومسبب الإيمان لمن اهتدى به .[3] وقد قال الله – ﷻ – في آية التحدّي : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود:13] ، "فلو كان وجه الإعجاز هو كثرة العلوم والإخبار عن الغيوب أو عدم التناقض ، لم يكن لقوله (مفتريات) معنى ، أمّا إن كان الوجه هو الإعجاز اللغوي البلاغي صحّ ذلك، لأنّ فصاحة الفصيح تظهر في الكلام صدقا كان أو كذبا ".[4]

وسيزيد هذا المعنى وضوحا وجلاء عند الحديث عن التحدي والمعارضة .

المطلب الثاني : التحدي والمعارضة:

أولا : مفهوم التحدي ومستوياته:

1-تعريف التحدّي:

ا- لغة:

جاء في لسان العرب : " تحدّيت فلانا : إذا باريته ونازعته الغلبة ... وتحدّاه باراه ونازعه

---

1) المرجع السابق ص 104.

2) الصناعتين الكتابة والشعر ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1406هـ – 1986م ، ص1.

3) انظر : دراسات حول القرآن الكريم ، د. اسماعيل أحمد الطحان ، مكتبة الفلاح ، الكويت ،ط:2 ، 1408هـ-1988م ، ص92 .

4) التفسير الكبير ، محمد فخر الدين الرازي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ط:3 ، دت، 3/ 203 .

الغلبة وهي الحديّا . وأنا حديّاك في هذا الأمر أي : ابرز لي فيه . قال عمرو بن كلثوم :

حُدَيَّا النّاس كلّهم جميعا مقارعةً بَنِيهم عن بَنِينَا. [1]

ب- اصطلاحا:

قال الزركشي(794هـ) : " يُقال تحدّى فلان فلانا إذا دعاه إلى أمر ليظهر عجزه فيه ، ونازعه الغلبة في قتال أو كلام أو غيره". [2]

2-أسباب التحدّي ودواعيه:

لقد أصرّ المشركون الذين بعث الله إليهم محمدا – ﷺ– على موقفهم من رفض ما جاء به من الهدى ودين الحق ، وأعمى الحقد والكبر بصائرهم عن أنوار القرآن ، فقالوا حين تليت عليهم آيات الله بينات:﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال:31]، وقالوا عن القرآن الكريم بأنّه﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:5]وقالوا عن النبي – ﷺ–:﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ [النحل: 103] ، ووصفوه بأنّه شاعر وكاهن وساحر ومفتر، وأنّ ما يُوحى إليه أضغاث أحلام . فدعاهم القرآن للنّزال وأصّلت لهم سيف التحدّي، قال الله تعالى :﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: 33-34].

3-مراتب التحدّي ومستوياته:

أ- المرتبة الأولى: أول ما تحدّى القرآن من أُنزل إليهم هو الإتيان بمثله . قال تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: 34].. " وهذه الآية من أوائل الآيات في التحدي ، فكان أوّل ما طُلب من المنكرين الجاحدين أن يأتوا بمثله بلا تحديد . فيكون هذا المثل شاملا لكل صنوف الإعجاز التي يتصف بها القرآن". [3]

---

1) لسان العرب لابن منظور ، 2/ 808 .

2) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ،دت ، 2/ 91

3) من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث ، بدرية بنت محمد بن حسن العثمان ، دار الراية ، الرياض ، ط: 1 ، 1417هـ ، ص23.

ب- المرتبة الثانية: بعدما ثبت عجز خصوم العرب عن الإتيان بمثل القرآن ، تنزل الحق -ﷻ- معهم إلى مرتبة أقلّ وأسهل ؛ بتحديد نصيب معين من القرآن تحدّاهم أن يعارضوه .

وقد اختلف العلماء في سبق التحدي هل كان بعشر سور -كما نطقت به سورة هود- ، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: 13] أم كان بسورة واحدة -كما جاء في سورة يونس- :﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس:38].

ولعل أحسن الأقوال -برأيي- في هذه المسألة الذي اعتبر أصحابه أن لا إشكال في سبق النزول والتحدّي بعشر سور وبواحدة لأنّ التكليفين سواء .[1] قال سيد قطب :" ... إنّ القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة ، فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن ، أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور، دون ترتيب زمني . لأنّ الغرض كان هو التحدّي في ذاته بالنسبة لأيّ شيء من هذا القرآن ، كله أو بعضه أو سورة منه على السواء ، فالتّحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره، والعجز كان عن النوع لا عن المقدار ، وعندئذ يستوي الكلّ والبعض والسورة ولا يلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطَبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة ،فهو الذي يجعل من المناسب أن يُقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن ، ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التي لم يذكر لنا القرآن ".[2]

المهمّ أنّ المواجَهين بهذا التحدّي لم يقدروا على المعارضة ، واحتاج عجزهم إلى تنازل آخر ومرتبة أدنى.

ت-المرتبة الثالثة: وجاء ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ

---

1) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:1 ، 1413هـ - 1993م ، 3/ 155.

2) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط:10، 1401هـ-1981م ، 4/ 1862،1861.

صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: 23]، وهذه آخر المراتب وأقصى ما يمكن من التسهيل ، فقد " تنزّل معهم في هـــذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل ، كأنه يقول : لا أكلّفكم بالمماثلة العامة ، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها ، وبما يكون مِثْلاً على التقريب لا التحديد ، وهذا أقصى ما يكون من التنزّل، ولذا كان هو آخر صيغ التحدّي نزولا".[1]

ثانيا: المعارضة:

1-تعريفها:

ا- لغة: " عارض الشيء بالشيء معارضة : قابله ، وفلان يعارضني أي يباريني".[2]

ب- اصـــطلاحا: معارضـــة القرآن هي أن ينشيء إنسان كلاما ، يزعم أنّه على غرار القرآن ويُثبت له ما للقرآن من صفات فنية".[3]

لقد تحدى القرآن العرب وكرر عليهم هذا التحدّي في صور شتى ، مثيرا فيهم الحمية ، فاتحا لهم باب المعارضة على مصراعيه ، مع توفّر دواعيهم ودوافعهم لإجابة هذا التحدي ، إذ لم يكن يُشقّ لهم غبار في البيان،ولا يكبو لهم جواد في ميدان البلاغة ، كما كانوا أحرص الناس على إبطال الدعوة والقضاء على الرسالة الخاتمة".[4]

لكـــن العـــرب وهم مظنّة المعارضة عجزوا عن إجابة التحدّي. قال الباقلاني: "والذي يدل عـــلى أنّهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنّه تحدّاهم إليه حتى طال التحدّي ، وجعله دلالة عـــلى صدقه ونبوّته ، [...]فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا [...]فلما لم يحصل هناك معارضة منهم ، عُلم أنّهم عاجزون عنها ".[5]

لقد وجد خصوم القرآن أنفسهم أمام طود شامخ لا قِبَل لهم به ، فاستيقنوا عجزهم ، ثمّ ما كان جوابهم إلاّ السفاهة والجهل والعناد . قال عبد القاهر الجرجاني(471هـــ):" وهل سُمع قطّ بذي عقل و مسكة استطاع أن يُخرس خصما له قد اشتطّ في دعواه بكلمة يُجيب بها فترك ذلك إلى أمور

---

1) النبأ العظيم ، محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، الكويت ، ط:7 ، 1413هـــ-1993 ، هامش ص84.

2) لسان العرب -دت- 4/ 2885.

3) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ، د.عبد الرؤوف مخلوف ، دار مكتبة الفلاح ، بيروت ، 1978م، ص21.

4) انظر : التعريف بالقرآن والحديث ، محمد الزفزاف ، مكتبة الفلاح ،الكويت ، ط:4 ، 1404هـــ-1984م- ، ص136.

5) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص43.

يُســـفّه فـــيها ، ويُنسب معها إلى ضيق الذرع والعجز ، وإلى أنه مغلوب قد أعوزته الحيلة وعزّ عليه المخلص ، أم هل عُرف في مجرى العادات ومبنى الطبائع أن يدع الرجل ذو اللّب حجّته على خصمه فلا يذكرها ولا يُفصح بها ولا يُجلّي عن وجهها ، ولا يُريه الغلط فيما قال والكذب فيما ادّعى، ولا يدّعى أنّ ذلك عنده وأنّه مستطيع له ، بل يجعل أوّل جوابه له ومعارضته إياه التسرّع إليه والسّفه عليه والإقدام على قطع رحمه وعلى الإفراط في أذاه" .[1]

وهنا تسطع أنوار الأدلّة ، وتتجلى البراهين والحجج على كون القرآن معجزا ، "لأنّ العرب تُحُـــدّوا إلى معارضـــته ، ولم يأتوا بها ، ولولا عجزهم عنها لكان محالا أن يتركوها ويتعرّضوا لشبا الأسنّة وموارد الموت".[2]

وقد سُمعت في مسرح التاريخ أصوات ناعقة حاول أصحابها أن يبنوا أمجادهم بزخارف من القـــول زاعمـــين أنّهم عارضوا القرآن ،"فمنهم من ادّعى النبوّة وجعل ما يُلقيه من ذلك قرآنا كيلا تكون صنعة بلا أداة ...ومنهم من تعاطى معارضة القرآن صناعة وظنّ أنّه قادر عليها يضع لسانه منها حيث شاء".[3]

تلك محاولات بائسة ألقى أصحابها بأنفسهم في أتون المعركة ، فجاؤوا بكلام هو إلى التفاهة والحطّـــة أقـــرب ، ومن السفاهة والحماقة أعجب وأغرب ، وكانوا مضغة لأفواه الساخرين . قال الباقلاني : " فإن قال قائل : ما أنكرتم أن يكون مسيلمة عارض القرآن وقابله بقوله : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نِقّي ما تنقّين ، لا الماء تغيّرين ولا الشارب تمنعين . وقوله: والزارعات زرعا ،فالحاصدات حصدا ، والطاحنات طحنا . وأمثال ذلك من الكلام الركيك السخيف ؟ .قيل له : هذا الكلام دال عـــلى جهـــل مورده وضعف عقله ورأيه ، وما يوجب السخرية منه والهزء به ، وليس هو مع ذلك خارجـــا عـــلى وزن ركيك الشعر وسخيفه ...وعلى أنّ هذا الكلام لو كان معجزا لتعلّقت العرب وأهـــل الردّة به ، ولعرف أتباع النبي– ﷺ– أنّه عورض ، ولوقع العلم اليقين بأنّه قد قوبل ، وفي عدم ذلك دليل على جهل مدّعي ذلك...".[4]

---

1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (الرسالة الشافية ، لأبي بكر عبدالقاهر بن عبد الرحمن الجرجاني) ، ص 120، 121.

2) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، محمد فخر الدين الرازي ، تحقيق: د.شيخ بكري أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط:1 ، أكتوبر، 1985 ، ص78.

3) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للرافعي ، ص122 ، 123.

4) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق :عماد الدين أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط:1 ، 1407هـ–1987م ،ص181، 182.

ومهما ادّعى ناقص عقل أو ذو جهل إمكان معارضة القرآن ، وزعم أنّ في مقدور أحد من العالمين أن يباري نظمه ، فحسب الموقنين بآيات ربّهم قول الحقّ – ﷻ – في محكم التنزيل : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء :88] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثّاني

بين يدي السّورة

المطلب الأوّل : التّسمية:

سمّيت في جميع المصاحف ، وكتب التّفسير ، والسنّة : سورة هود ، ولا يُعرف لها اسم غير ذلك ، وكذلك وردت هذه التّسميّة عن النبيّ -ﷺ-[1] .

وممّا عُلّل به لهذه التّسميّة ما ذكره صاحب التحرير والتّنوير حيث قال : " وسمّيت سورة هود لتكرار اسمه فيها خمس مرّات ولأنّ ما حُكيَ عنه فيها أطول ممّا حكيَ عنه في غيرها ، ولأنّ عاد وُصِفوا فيها بأنّهم قوم هود في قوله تعالى : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: 60] وقد تقدّم في سورة يونس تعليل آخر للتّسميّة ينطبق على هـذه ، وهو تمييزها من بين السّور ذوات الافتتاح بـ : (ألـر) . "[2]

وقد بيّن الطّاهر بن عاشور هذا الوجه في معرض تقديمه لسورة يونس بقوله : " والأظهر عندي أنّها أضيفت إلى يونس تمييزا لها عن أخواتها الأربع المفتتحة بـ : (ألـر) ولذلك أضيفت كلٌّ واحدة منها إلى نبيّ ، أو قوم نبيّ ، عوضا على أن يُقال : ألـر الأولى ، وألـر الثانية وهكذا ... فإنّ اشتهار السور بأسمائها أوّل ما يشيع بين المسلمين بأوّل الكلمات التي تقع فيها وخاصة إذا كانت حروفا مقطّعة ، فكانوا يدعون تلك السور بآل حم ، وآل ألـر ونحو ذلك ."[3]

المطلب الثّاني: فترة النزول:

نزلت سورة هود بجملتها بعد سورة يونس ، ونزلت يونس بعد الإسراء ، وهذا يحدّد معالم الفترة التي نزلت فيها ؛ وهي - كما قال سيد قطب - من أحرج الفترات وأشقّها في تاريخ الدّعوة

---

1) التحرير والتنوير لابن عاشور ، 11 / 311 .

2) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

3) المرجع نفسه ، ص 77 .

بمكّـــة ، فقد سبقها موت أبي طالب وخديجة ، وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب – وخاصّة بعد حادثة الإسراء وغرابته ، واستهزاء المشركين وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله – مع وحشة رسول الله – ﷺ– من خديجة – رضي الله عنها – في الوقت الذي تجرّأت فـــيه قـــريش علـــيه وعلى دعوته ، وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها ، وتجمّـــدت حركة الدّعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكّة ومن حولها ، وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلّة المسلمة معه ببيعة العقبة الأولى ثمّ الثّانية .[1]

وفي هـــذا الجـــوّ الكمِـــد المشحون بأنواع المكر والكيد والأذى من جانب قريش وأكابر مجرمـــيها، والحافل بعناء المُجاهدة من جانبه – ﷺ– ومن تاب معه ، كانت تتنزّل آيات سورة هود على قلب النبيّ – ﷺ– غذاء للرّوح ، وبلسما للجروح ، فتسكب في نفسه الطمأنينة والرّضى .

والمـــتأمّل لآيـــات السورة الكريمة يستشِفّ من جوّها وظلالها وموضوعاتها آثار تلك الفترة العصيبة التي نزلت فيها ، خاصّة ما تعلّق بتثبيت رسول الله – ﷺ– والذين معه على الحقّ ، والتسرية عنه ممّا يساور قلبه من الوحشة والضّيق .[2]

المطلب الثالث: مكيّها ومدنيّها :

هـــذه السّورة مكيّة ، واختُلف في المدني منها . قال ابن عطية(542هـ):" هذه سورة مكيّة إلا قول الله تعالى:﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ [هود:12]. وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [هود :17] ، ونزلت في ابن سلام وأصحابه ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: 114] ، نزلـــت في شأن الثمار، وهذه ثلاثة مدنيّة ، قاله مقاتل، على أنّ الأولى تشبه المكّي".[3]

ورجّـــح بعض المفسرين أنّها مكيّة كلّها ، قال ابن عاشور : " والأصحّ أنّها مكيّة كلّها ، وأنّ ما رويَ من أسباب النّزول في بعض آيها توهّم لاشتباه الاستدلال بها في قصّة نزلت حينئذ ، على

1) في ظلال القرآن ، 4/ 1840 .
2) انظر المرجع نفسه ، ص1841 .
3) المحرّر الوجيز ، لابن عطية ، 3 / 148.

أنّ الآية الأولى من هذه الثلاث واضح أنّها مكيّة . "[1]

وهو الرّأي الذي اعتمده سيد قطب ؛ الذي نظر إلى موضوع الآيات وجوّها فقال : " هذه السورة مكيّة بجملتها ، خلافا لما ورد في المصحف الأميري من إنّ الآيات [12، 114،17] فيها مدنيّة ، ذلك أنّ مراجعة هذه الآيات في سيّاق السُّورة تلهم أنّها جاءت في موضعها من السّياق ، بحيث لا يكاد يتصوّر خلو السيّاق منها بادئ ذي بدء ، فضلا على أنّ موضوعاتها التي تقرّرها هي من صميم الموضوعات المكيّة المتعلّقة بالعقيدة وموقف مشركي قريش منها ، وآثار هذا الموقف في نفس رسول الله- ﷺ- والقلّة المسلمة معه، والعلاج القرآني الربّاني لهذه الآثار. "[2]

المطلب الرابع: علاقتها بما قبلها:

نزلت سورة هود بعد سورة يونس ، قال صاحب المنار : " وهي في معناها وموضوعها ، وهو أصول عقائد الإسلام في الإلهيّات والبعث والجزاء وعمل الصّالحات ، وقد فصّل فيها ما أجمل في سورة يونس من قصص الرّسل - عليهم السلام - وهي مناسبة لها كلّ المناسبة ببراعة المطلع في فاتحتها ، والمقطع في خاتمتها ، وتفصيل الدّعوة في أثنائها ، فقد افتتحت بذكر القرآن بعد : (ألر)... وذكر رسالة النبيّ المبلّغ له عن الله تعالى ، وبيان وضيفته فيها ، وهو الإنذار والتّبشير وختمتا بخطاب النّاس بالدّعوة إلى ما جاء به الرّسول - ﷺ-، وأمره في الأولى بالصّبر حتّى يحكم الله بينه وبين الكافرين ، وفي الثّانية بالانتظار ، أي : انتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة على عبادته والتّوكّل عليه ، وذكر في أثناء كلّ منهما التحدّي بالقرآن ، ردّا على الذين زعموا أنّ الرّسول - ﷺ- قد افتراه ، ولكن هذا الموضوع في الأولى أوفى منه في الثانية ، وكذا محاجّة المشركين في أصول الدّين كلّها ، فقد أجمل في كلّ منهما ما فصّل في الأخرى ، مع فوائد انفردت بها كلّ منهما ، فهما باتّفاق الموضوع ، واختلاف النّظم والأسلوب ، آيتان من آيات الإعجاز ، تخرّ لتلاوتهما الوجوه والأذقان ، ساجدة للرّحمن . "[3]

ومن وجوه التّناسب بين سورة هود وسورة يونس التي سبقتها في النّزول وفي ترتيب المصحف ، " أنّه ذكر في سورة يونس قصّة نوح - عليه السلام – مختصرة جدّا ، فشرحت في هذه

---

1) التحرير والتنوير ، 11 / 312 .

2) في ظلال القرآن ، 4/ 1839 .

3) تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط:2 ، 12/ 2.

السورة ، وبسطت فيها ما لم تبسط في غيرها من السوّر ، ولا سورة الأعراف على طولها، ولا سورة (إنّا أرسلنا نوحا) التي أفردت لقصّته ، فكانت هذه السورة شرحا لما أُجمل في تلك السورة وبسطاً له، ثمّ إنّ مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك ، فإنّ قوله تعالى هنا : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [مود: 1] نظير قوله سبحانه هناك :﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [يونس: 2]بل بين مطلع هذه وختام تلك ارتباط أيضا، حيث ختمت بنفي الشّرك واتباع الوحي ، وافتتحت هذه ببيان الوحي والتّحذير من الشّرك". [1]

المطلب الخامس : قطاعات السورة ومحاورها الرّئيسيّة :

" يحتوي تركيب سورة هود على ثلاثة قطاعات متميِّزة :

1- القطاع الأوّل : يتضمّن حقائق العقيدة في مقدِّمة السورة ويشغلا حيِّزا محدودا .

2- القطاع الثّاني: يتضمّن حركة هذه الحقيقة في التّاريخ ويشغل معظم سيّاق السورة .

3- القطاع الثّالث: يتضمّن التعقيب على هذه الحركة في حيّز كذلك محدود .

وواضح أنّ قطاعات السورة بجملتها تتعاون وتتناسق في تقرير الحقائق الإعتقادية الأساسيّة التي يستهدفها سيّاق السّورة كلّه ، وأنّ كلّ قطاع منها يقرّر هذه الحقائق وفق طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق وهي تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه". [2]

المطلب السّادس : أغراض السورة:

ابتدأت السورة الكريمة بتعظيم شان القرآن ، فهو الكتاب المعجز الذي أحكمت آياته ، بحيث لا خلل يتطرّق إليه ولا تناقض لأنّه تنزيل الحكيم الخبير ، ثمّ عرضت لعناصر الدّعوة الإسلامية ، عن طريق الحجج العقليّة مع الموازنة بين الفريقين : فريق أهل الهدى ، وفريق أهل الضلال ، ثمّ تحدّثت عن دعوة الرّسل الكرام ، فقصّت على رسول الله أخبارهم ليقتديَ بهم ، ويتأسّى بهم في الصبر والثّبات على تبليغ دعوة الله . قال سيد قطب : " أمّا سورة هود فالقصص فيها هو جسم

---

1) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، ابو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي ، دار الفكر ، بيروت ، 1403هـ - 1983م . 11/ 202.

2) في ظلال القرآن ، 4 / 1844 .

السورة ، وهو وإن جاء شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها ؛ إلا أنّه يبدو فيه أنّ استعراض حركة العقيدة الربّانية في التّاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز" [1] ، "فتذكر السورة قصّة نوح ، وقصّة هود ، وقصّة صالح ، وقصّة لوط ، وقصّة شعيب ، وتشير إشارة وجيزة مقتضبة إلى إبراهيم وموسى - كما اقتضى السيّاق — ثمّ جاء التّعقيب المباشر بذكر الغاية من سرد هذه القصص والأخبار ألا وهو العِظة والاعتبار والزّجر للطُّغاة المتكبرين ، وكذلك تثبيت قلب النبيّ - ﷺ- ثمّ تختتم السّورة بالإشادة بالقرآن الكريم - كما بدأت به - ليتناسق البدء مع الخِتام في أعظم بيان وأبدع إحكام ". [2]

1) المرجع نفسه ، الصّفحة ذاتها .

2) انظر: قبس من نور القرآن الكريم ، محمد علي الصابوني ، دار السلام ، بيروت ، لبنان ، ط:1، 1418هـ - 1997م ، 5 / 7 ،9،8 .
انظر أيضا : بصائر ذوي التمييز للفيروزبادي ، 1/ 247 .

الفصل الأول

الإعجاز في الحروف والمفردات والفواصل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

الإعجاز في الحروف

أنــزل الله –ﷻ– القــرآن بلسان عربي مبين ، لم يخرج –في حروفه وكلمه ، وفي ألفاظه وجمله– عن شيء مما عرفه العرب في لغتهم ، " فحروف القرآن هي حروفهم ، وألفاظه هي ألفاظهم، لكن هذه الحروف وتلك الألفاظ حينما دخلت في تركيب ، وسلكت في نظم ، وخرجت على هذه الصورة التي نزل بها القرآن ، كانت شيئا آخر". (1)

وإن يعجــب المــرء فعجبٌ لحروف تمتطي صهوات التحدّي ، وتمتشق سيوف الإعجاز ، فتخرِس شقشقة العرب ، وتفحِم منهم أولي النهى والأدب، وتخشع لها الأصوات فلا تسمع إلاّ همسًا!

في هــذا المبحث أحاول تِبيان طَرَف من مظاهر الإعجاز في سورة هود ؛ مما يتعلّق بحروف المباني ، مركّزًا في ذلك على جانبين :

المطلب الأول: ما يتعلّق بصفات الحروف :

تلك حروف الكتاب المبين ، أوّلُ ما يفاجئ الإنسان وهو يقرأ القرآن أو يُلقي السمع إليه، وأوّلُ مــا يشدّ انتباهه ويستدعي منه الإقبال عليه ، " والقرآن الكريم يتخيّر حروف الكلمة وينتقي أصــواتها صافية النّوق في مخارجها ، لذيذة السماع ، طيّبة المجرى على اللسان ، معتدلة في تأليفها ، خفيفة في الفم ، نازلة على أحسن هيئة في الإيقاع، قويّة الإيحاء ، شديدة البعث لما تتضمّنه من المعاني المــرادة والأهداف المقصودة من الآية الكريمة .فنجد في تركيب حروفه تناسقًا عجيبًا بين الرّخو منها والشــديد والمجهــور والمهموس والممدود والمقطــوع ، ونرى أنّ اجتماعها إلى بعضها يُؤلّف نغمًا مطربًا ، يظهر أثره في صوت القارىء". (2)

---

1) مــن أســرار التعبير في القرآن(حروف القرآن) ، د.عبد الفتاح لاشين، شركة مكتبات عكاظ ،المملكة العربية السعودية ،ط:1، 1983مـــ 1403م ، ص 19، 20 .

2) المرجع نفسه، ص 43.

فأيّــة لــذّة يجتــنيها السامع من نظم هذه الحروف ورصفها وترتيبها ، وما ذاك إلاّ لأنّ اصــطفاءها وانتقاءها قد طُبع بطابع الحكمة البالغة والعلم الشامل المحيط:﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:166].

إنّ الحــروف التي تشكّلت منها كلمات هذه السورة الكريمة لتتسم بصفات حاملة للدليل الإعجــاز ، كاشفة عن علو المترلة وسموّ المرتقى في آفاق الإبداع والفن والجمال . وهذه نقاط ثلاث نتوكّأ عليها في بيان ذلك:

أولا - اختلاف الحروف وتنوعها حسب مواقف التعبير:

"تختــلف الحروف قوّةً وضعفًا ، وتتباين في جرسها ورنّاتها، ويتبع ذلك اختلاف الكلمات التي تتكوّن منها في وقعها على السمع وفي مترلتها في أداء المعنى وفي إثارتها لانفعالات خاصّة وألوان مــن الإحساس ، وكلّ ذلك يُؤثّر في الإبانة ؛ فالحروف اللّينة الهادئة الجرس تبعث الارتياح ، والقويّة تناسب مواقف الزجر والتعنيف ، والممدودة تناسب موطن النصح والإرشاد.ولكلّ هذا شأن في بلاغة القــول وروعــته وحسن أدائه ، ومطابقته لمقتضى الحال ، ونجد ذلك واضحًا في الأسلوب المحكم للقرآن الكريم".(1)

فإذا قرأنا هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [هود:66]، وجدنا جرس الحروف ونبرتها وموسيقاها تتضافر على تصوير الموقف وتأدية المعنى ، فالآية مسوقة – في ختام قصة صــالح –عليــه السلام– لبيان نجاة المؤمنين وانتقام الله –جلّت قدرته– من الظالمين . إنّنا لنستروح نسمات الرحمة والعطف تبعثها في أنفسنا ليونة ولطافة تلك الحروف الهادئة الرتيبة التي كوّنت كلمات الشّــطر الأوّل مــن الآيــة:(نجّيــنا – صالحًا – الذين – آمنوا – برحمة – منّا)، ونحسّ معاني القوّة الجبــّارة، والعزّة المتمكّنة تخترق قلوبنا من قوّة وشدّة قرع وصخب الحروف المكوّنة للشّطر الثاني من الآية:(خزي – إنّ ربّك – القويُّ – العزيز).

---

1) المرجع السابق ، ص 27 .

وفي قصّة شعيب –عليه السلام – مثال آخر، حيث تأتي الحروف في موطن النصح والإرشاد ليّـــنة رقيقة ، يُصوِّر جرسها الهادئ الرّخيم جوّ الودّ المليء بالتلطّف والتعطّف، وتسكب نبراتهـــا في القلـــب معاني الرحمة والشفقة ؛ فنقرأ كلمات وادعة جذّابة:(مالكم – من إله – توفيقي – رحيم – ودود). ثمّ نجـــد الحـــروف التي تتشكّل للتعبير عن مواقف الزّجر والتعنيف ، أو التهديد والتبكيت ، أوتُصوِّرمشـــاهد الانتقام الإلهي قويّةً في جرسها ، غليظة في وقعها ، فنقرأ كلمات صاخبة مشحونة كظيمة:(أرهطي – أعزُّ – اتّخذتموه – ظِهْرِيًّا – وارتقبوا – معكم – رقيب – أخذت – الصّيحة – بُعدًا – بعدت...) .

ويـــتّخذ التعـــبير القرآني هذا السّمت –من اصطفاء الحروف بما يُناسب المقام والمراد – في أغلب آي السورة الكريمة ، خاصّة أثناء رسم صُور النعيم والعذاب في دار البقاء . فالحروف في آيات الوعـــيد صلبة قويّة عنيفة ، ذات نغم صاخب مهيب:(شَقُوا – زَفِيرٌ– شَهِيقٌ – ربّكَ – فَعَّالٌ). أمّا الحروف في آيات الوعد فهي ذات نغم شجيٍّ آسر ، تنساب في عذوبة ورقّة:(سُعِدُوا – الجَنّة ...).

ثانيا – تلاؤم الحروف :

إنّ تناســـق حـــروف القرآن وتلاؤمها وحسن نظمها لدليل بيّن على الإعجاز اللُّغوي لهذا الكتـــاب المحكم الذي أُولي فيه كُلُّ شيء حظّه من العناية ، حتّى الحرف الواحد الذي رُكّب في الآية تركيبًا في غاية الدّقّة والإتقان ، وفي منتهى التجانس مع غيره من الحروف.

والـــتلاؤم – كما يقول الرّماني(384هـــ)– "هو نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليـــف ، والتأليف على ثلاثة أوجه: متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى ومتلائم في الطبقة العليا... والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كلّه، وذلك بيّن لمن تأمّله".[1]

ولـــتلاؤم الحـــروف فائدة جليلة تكمن في " حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ وتقبّل المعنى في النّفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة ، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والحروف ، وقراءتـــه في أقبح ما يكون من الحـــرف والخط، فـــذلك متفاوت في الصورة وإن كانت المعاني واحدة".[2]

---

1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (النكت في إعجاز القرآن للرماني) ، ص 95 .

2) المرجع نفسه ، ص 96.

وتفرّد القرآن الكريم في هذا المجال عجيب ، حيث نجد حروفه تتلاءم في مـــواضع لا يمكن أن يحـــدث فيها تناسق عادة في الكلام البشري ؛ "فقد تجتمع الحروف المتماثلة في الكلمة الواحدة في القـــرآن الكـــريم ، وهو ما يقتضي التعسُّر في النطق ، والثقل في اللفظ بحسب مقاييس البشر ، لكن حـــروف القـــرآن ، والكلمة منه تأتي خفيفة على السمع أنيقة في التركيب ، لا يصيبها في التأليف القرآني ما يصيبها في التأليف البشري،فكلُّ حرف يصيب موقعه من الكلمة ، ويقع موضعه في اللفظ ويكون من الذّوق بمكان".(1)

وإذا كـــان من دواعي الإخلال بفصاحة الكلام كثرة توالي الحرف الواحد في الجملة فإنّ لذلـــك شأنًا آخر في آيِ القرآن الكريم ؛ مثال ذلك في سورة هود اجتماع ستَّ عشرة ميمًا في آية واحدة وذلك في قوله تعالى :﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [هود: 48] "ففي (أمم ممن معك) ثماني ميمات، والأصل:(أمم مِن مَن معك)، قُلب تنوين (أممٍ) ميمًا فهذه ثلاث ميمات ثم قُلبت نون (مِن) مـــيما فهـــذه خمس ميمات ، ثم قُلبت نون (مَن) ميما فهذه سبع ميمات، والميم الثامنة ميم(معك). واجتماع هذه الميمات متّفق عليه من جميع القرّاء ، قرّاء المتواتر والشّاذ ، ولم يقرأ أحد بغير ذلك".(2)

وهكذا تصبح عوامل إخراج الكلام عن دائرة الفصاحة غيرَ ذاتِ أثرٍ إذا تعلّق الأمر بالقرآن الكريم ، وذلك من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

ثالثا. كثرة حروف الكلمة:

هـــذه حجّـــة أخرى يظهر بها إعجاز القرآن الكريم في حروفه ، ذلك أنّ الكلمة لابدّ " أن تكـــون معـــتدلة الـــوزن قليلة الحروف ليسهل النطق بها وتكون لذيذة في السمع طيّبة المجرى على اللســـان. وقـــد سلك الذّوق العربي في عدد أحرف الكلمة مسلكًا وسطًا حتّى لا تطول طولاً مملاً يورث الثقل ، ولذلك كان أكثر الكلمات العربية ثلاثـــيًـــا وأبعدها في الاستعمال الخماســـيُّ لكثرة حروفه...وأوسطها الرُّباعيُّ لحصوله بين الأمرين ، وعلى هذا فمتى زادت الكـــلمة على هذا القياس قُبحت وخرجت عن وجه الفصاحة".(3)

---

1) من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن) ، د. عبد الفتاح لاشين ، ص 31.

2) المرجع نفسه ، 34.

3) المرجع نفسه : ص 38 .

نقـــرأ ســـورة هود فنجد كلمة تتكوّن من عشرة أحرف ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾ [هود:28] ، فعندما نتأمل هذه الكلمة (أَنُلْزِمُكُمُوهَا) التي " يوهم ظاهرها الطـــول-عـــند النظرة الأولى- نراها على المستوى اللائق من الخفّة على اللسان والسهولة في المخرج والعذوبة في السمع ، والبعد الكامل عن الثّقل والتنافر".[1]

وإنّ الكلمة لترد في تعبير البشر فيكون لها من كثرة الحروف وطول المقاطع ما يجعلها ثقيلة على السمع واللسان ، مُستوحَشَة في النفس ، ثم نراها في التعبير القرآني وقد تبدّلت سيّئاتها حسنات ، فإذا بها تكتسي من حلل الجمال ما تعذُب به وترق وتتمكن في موضعها ، وتكون حروفها أدعى إلى الاستئناس ولذاذة التنغيم والإطراب.[2]

المطلب الثاني: ما يتعلق بالحروف المقطعة :

هـــذا جانـــب من جوانب الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم يحتاج إلى كبير اهتمام ووفير عـــناية، لاســـيما وهو الجانب الذي أسال حبر الدّارسين ولم يزل - بعدُ - مجالاً حيًّا وميدانًا خصبا لاشتغال الفكر والوقوف على دلائل القدرة الإلهية والإعجاز المطلق.

أولا : أصناف الافتتاح في القرآن :

تمـــيّزت سور القرآن الكريم بصنوف من الافتتاح الحسن والابتداء الرائع الرّاقي ، وقد افتتح الله -ﷻ- سور كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها :بالثناء ، بحروف التهجي ، بالنداء ، بالجمل الخبرية ، بالقسم ، بالشرط ، بالأمر ، بالاستفهام ، بالدعاء ، بالتعليل.[3]

وقد نظمها بعضهم بقوله :

أَثْنَى عَلَى نَفْسِه سُبْحَانَهُ بِثُبُـــــــــــــــــو ... تِ المَدْحِ وَالسَّلْبِ لَمَّا اسْتَفْتَحَ السُّوَرَا

وَالأَمْرُ شَرْطُ النِّدَا التَّعْـــلِيلُ وَالقَسَمُ الـــدُّ ... عَا حُرُوفُ التَّهَجِّي اسْتَفْـــهِمِ الخَبَرَا .[4]

---

1) المرجع السابق : ص 40.

2) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 160 .

3) انظر: البرهان للزركشي ، 1/ 166 وما بعدها .

4) المرجع نفسه ، ص 181 .

وسـورة هود من السور المفتتحة بالحروف المقطعة،فقد بدأت بقول الحق -سبحانه وتعالى-:﴿ الر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود: 1] فالألف واللام والرّاء حروف افتتح الله -عز وجل- بها هذه السورة،ذاكرًا بعدها القرآنَ الكريم بقوله:﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ آيَاتُهُۥ﴾. "وعادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلّق بالقرآن كقوله: " ألم. ذلك الكتاب" ، وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم ".[1]

ثانيا: علاقة الأحرف المقطّعة بالإعجاز:

افتـتح المولى -عز وجل- تسعًا وعشرين سورة من كتابه الكريم بالحروف المقطّعة ، ومعظم هـذه السور نزل بمكة المكرمة [2] ؛ أين كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يجابه المشركين مُستلاً حسام التّحدّي بالقرآن ، عملاً بقوله تعالى:﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: 52] . ومن تلك الحروف ما جاء في ثاني سورا لقرآن نزولاً وهي سورة القلم في قوله تعالى:﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ ﴾ [القلم:1] . فهل لذلك علاقة بالإعجاز في القرآن الكريم ؟

سـجّل العلماء والمفسـرون ملاحظات كثيرة حول هذه الأحرف المقطعة والسور الواردة فيها ،" ومن أهم الملاحظات التي سُجّلت عبر العصور أنه حيث وردت هذه الأحرف في سورة فإنّ السـورة لها صلة في الحديث عن القرآن" [3]. "وهذا فكلّ سورة افتتحت بالحروف فلابدّ أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته ، وهذا معلوم بالاستقراء ، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ".[4] وهذه الحكمة العالية اللطيفة تتجلّى لنا في سورة هود بوضوح ، فإنّ هذه السورة -وهي المفتـتحة بأحرف مقطعة- قد اشتملت على ذكر القرآن ومصدره ، والتنويه بشأنه :﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾، وتحدّي من زعم أنّ النبيّ -صلى الله عليه وسلم- افتراه أن

---

1) المرجع نفسه : ص 170 .

2) انظر: التحرير والتنوير، 1/ 206 .

3) الأساس في التفسير، سعيد حوى ،دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط:5 ، 1419 هـ ـ 1999م ، 1 / 79.

4) تفسير القرآن العظيم ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ،(ت734ه)، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، لبنان ، 1/ 68 .

يفتري مثل بعضه:﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود:13 ـ 14].

لقـــد كان النبيُّ -ﷺ- يتلو هذه السورة ومثيلاتها -من المفتتحات بأحرف التهجّي- على المشركين في أُمّ القرى وما حولها إثباتًا للنبوّة والوحي ،"وكلّها مفتتحة بذكر الكتاب إلاّ سورة مريم وســـورتي العنكـــبوت والروم وسورة ن ، وفي كلٍّ منها معنًى ممّا في هذه السور يتعلّق بإثبات النبوّة والكتاب".[1]

ثالثًا: تأويل أهل العلم لهذه الحروف:

لقـــد تحـــيّر المفسرون والعلماء في أمر هذه الحروف المقطعة وحُقَّ لها أن تكون مثار حيرة ومـــيدان بحث شاقٍّ وشيِّق . ولقد جمحت خيول الفكر ببعضهم فأخرجتهم من دائرة الصواب إلى مفـــازات الظـــنون والوهم ، ولم يعد خافيا على اللبيب ما في كثير من الآراء من التخرّصات التي لا تســـتند إلى أدلّة النقل وبراهين العقل ، إن كانت إلاّ تأويلات شخصية مردّها الأهواء والميول . ومن الطـــرائف أنّ بعض الشيعة استأنس بهذه الحروف لخلافة الإمام عليٍّ -كرّم الله وجهه- فإنّ مجموع هـــذه الحروف بحذف المكرر منها يمكن أن تُؤلّف منه عبارة:(صِرَاطُ عَلِيٍّ حَقٌّ نُمْسِكُهُ) ، فردّ عليهم أهل السُّنّة بأن ألّفوا منها عبارة :(صَحَّ طَرِيقُكَ مَعَ السُّنَّه).[2]

وقد انحسرت محاولات العلماء لفهم وتفسير هذه الحروف عن أقوال متعددة ضمّها اتّجاهان بارزان:

1. الاتّجاه الأول:

ينضـــوي تحـــت هـــذا اللّواء أولئك القائلون بأنّ هذه الحروف المقطعة علم مستور وسر محجـــوب استأثر الله تعالى به : " روي عن الصديق-رضي الله عنه-أنه قال : في كل كتاب سر وسر القرآن فواتح السور،وعن علي-رضي الله عنه- أن لكل كتاب صفوة ،وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي. وعن

1) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ، 8/ 296.

2) انظر: روح المعاني للآلوسي، 1/ 104.

ابن عباس –رضي الله عنه– أنه قال: عجزت العلماء عن إدراكها " [1] . ومقتضى هذا الاتجاه أن هذه الحروف مما ينبغي أن لا يتكلم فيه ، ويؤمن بها كما جاءت من غير تأويل. [2]

2- الاتجاه الثاني:

و ينضـــوي تحته القائلون بأن المراد منها معلوم ، وهي تؤوَّل على مقتضى اللسان ، وهذا مســـلك الجمهور. قال صاحب "ملاك التأويل" :"وهذا الذي نعتقد أنه الحق ، لأن العرب تُحدِّيَت بالقـــرآن ، وطُلبـــت[كذا] بمعارضته أو التسليم والانقياد . وبمعرفته أنه بلسانهم ومعروف تخاطبهم وعجـــزهم مع ذلك عنه قامت الحجة عليهم وعلى كافة الخلق ، وإذا سلم هذا فكيف يرد في شيء منه خطابهم بما لا طريق لهم إلى فهمه ؟ فلو كان هذا لتعلقوا به ووجدوا السبيل إلى التعلل في العجز عنه ". [3]

ومـــن هـــنا تعددت الأقوال في محاولة استكناه مراد الله –عز وجل–وإدراك الحكمة من هذه الفواتح ، وفك شفراتها واستجلاء أسرارها ورموزها ، وقد عدّد الزركشي منها ثلاثة عشر وجها ، وقال إنّ بعض هذه الوجوه قريب وبعضها بعيد. [4]

ولعـــل أقرب الأقوال – برأيي – إلى الصواب ، وأدناها إلى تقبّل العقل ، وأولاها وأحقها بالاعتماد والنقل ، في شأن هذه الحروف قولان :

أ - أن المـــراد مـــنها تنبيه المخاطبين بها وإثارة استغرابهم وفضولهم فيكون ذلك داعيا لهم وباعـــثا عـــلى إلقـــاء السمع لما يُتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم ، قال أبو حيان(457 هـ) : "...وقـــال قوم: هي تنبيه كما في النداء ، وقال قوم: إنّ المشركين لمّا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيستمعون القرآن بعدها،فتجب عليهم الحُجَّة". [5]

---

1) تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت951 هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط: 2 ، 1411 هـ ـ 1990 م ، 1/ 21 .

2) انظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ، تحقيق: سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ،ط:1 ، 1403 هـ ـ 1983 م ، 1/ 174 .

3) المرجع نفسه.

4) انظر: البرهان في علوم القرآن ، 1/ 172 وما بعدها.

5) تفسير البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي،دار الفكر للطباعة والنشر،ط:2 ،1403هـ -1983م ، 1 /

وممّـــن اختـــار هذا الرأي صاحب (المنار) عند تفسيره لسورة الأعراف بقوله :" والمختار عـــندنا أنّ حكمـــة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى مفهوم غير مُسمّى تلك الحُـــروف الـــتي يتركّبُ منها الكلام هي تنبيه السامع إلى ما سيُلقى إليه بعد هذا الصّوت من الكلام حتّى لا يفوته شيء ، فهي كأداة الافتتاح (ألا) وهاء التنبيه".[1]

ولعـــل انطـــباق هذه الحكمة على الواقع المعيش لمن كان القرآن مُوجّها إليهم حين نزول الوحي هو ما دعا أنصار هذا الرّأي إلى الاستمساك به ؛ فجميع السور المفتتحة بهذه الحروف المقطّعة تضـــمّنت ذِكْـــر الكتاب وما يتعلّق بالوحي والنُبوّة ، وهي مكيّةٌ كلُّها ما عدا الزهراوين(البقرة وآل عمـــران) ، فأمّـــا المكـــيّةُ فلدعوة المشركين إلى إثبات النُبوّة والوحي والإقرار بإعجاز القرآن ، وأمّا المدنيّتان فلمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن .[2]

"ويزداد هذا الرّأي وضوحًا إذا سلّمنا بأنّ الزهراوين كانتا من أوائل السور نزولا بالمدينة – كما هو المشهور – وبتوالهما مفتتحتين بهذه الحروف المقطعة تمّت الحكمة الإلهية من تنبيه اليهود إلى الدعـــوة الجديـــدة وإثارة اهتمامهم بها ، فلم يعُد في استمرار الافتتاح بتلك الحُروف بعد الزهراوين حكمة ظاهرة باهرة ، ولذلك نزل الوحي بعدهما خاليًا من تلك الفواتح ".[3]

لهذا الرّأي وجاهته ، ولا مناص من الإقرار بقوّة الحُجّة فيه ، ولا ملامة على تقبُّله أو الأخذ بـــه مـــا دام مقـــيمًا لأساس الفكرة الجوهريّة هنا ، والتي مفادها اضطـــلاع هذه الحروف بمهمّتها الإعجازية ، وإقامتها لصروح التّحدّي في وجوه المشركين المبطلين.

ب - قيل إنّ المراد من هذه الحروف هو تحدي العرب وإعجازهم فهي " إشارة إلى حروف المعجـــم ،كأنه قال للعرب : إنما تحدّيتكم بما عرفتم".[4] قال أبو السعود :(951هـ) "واليه جنح أهل التحقيق قالوا :إنما وردت هكذا ليكون ايقاضا لمن تُحُدِّي بالقرآن وتنبيها لهم على أنه منتظم من عين مـــا يـــنظمون منه كلامهم،فلولا أنه خارج عن طوق البشر، نازل من عند خلاق القوى والقدر لما تضاءلت قوتهم ولا تساقطت قدرتهم ".[5]

---

1) تفسير المنار، 8 / 296.

2) انظر: مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح ،دار العلم للملايين ، بيروت، ط:18، يناير 1990، ص245.

3) المرجع نفسه . هامش ص:245،246.

4) البحر المحيط ، لأبي حيان الغرناطي ، 1 / 34.

5) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ، 1 / 21.

فهذا الكتاب الإلهي المعجز- الذي أوحى الحق -ﷻ- آياته إلى نبيّ أميّ ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطّه بيمينه - مؤلّف من جنس هذه الحروف التي افتتحت بها سورة هود ومثيلاتها.هذه الحروف هي مادة بناء هذا الكتاب وهذا الكلام ،وهي في متناول الذين يخاطَبون به من العرب ومن دونهم ، فما بالهم لم يستطيعوا صياغة مثله من مادة البناء تلك وقد توفرت لديهم، ثم هم أولاء يصدفون عنه ، ويستنكفون عن الاعتراف به ، زاعمين أن النبي -ﷺ-قد تقوّله وافتراه ، وتراهم غير قادرين على الإتيان بعشر سور مثله مفتريات ، لقد سُقِط في أيديهم، واستبدَّ بهم العجز والقصور، وضل عنهم ما كانوا يفترون.

لقد كان لبعض ما اكتشفه العلماء والدارسون - من أسرار ولطائف في هذه الأحرف المقطعة - أثرٌ في دعم هذا الرأي وتقويته ، وهي ملاحظات جديرة بالتأمل ، لدلالتها على سر الإعجاز الذي انطوت عليه تلك الفواتح .

فمن ذلك أن عدة الأحرف المقطعة في القرآن تسع وعشرون ، وأنها على ثلاثة عشر شكلا ،" وأكثر الحروف ورودا الألف واللام ، ثم الميم والحاء ثم الراء ثم السين ثم الطاء ثم الصاد ،ثم الهاء والياء والعين والقاف ، وأخيرا الكاف والنون، وجميع هذه الحروف الواردة في الفواتح من غير تكرار يساوي أربعة عشر، وهي نصف الحروف الهجائية .وبذلك يستأنس المفسرون القائلون : إن فواتح السور إنما ذكرت لتدلّ على أنّ هذا الكتاب الكريم مؤلف من حروف التهجّي المعروفة ، فجاء بعضها مقطّعا منفردا وجاء تمامها مؤلفا مجتمعا ، ليتبيّن للعرب أن القرآن نزل بالحروف التي يعرفونها فيكون ذلك تقريعا لهم،ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله". (1)

ومن ذلك أن هذه الأحرف لم تأت على صيغة واحدة " بل اختلفت أعداد حروفها مثل: ص، وق، ون، وطه ، وطس ، ويس ، وحم ، وألم ، وألر، وطسم ،وألمص ،وألمر، وكهيعص ، وحم عسق . فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة كعادة افتتاحهم في الكلام ، وكما أنّ أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف سلك في الفواتح هذا المسلك ". (2)

وإضافة إلى كون عدد السور المفتتحة بهذه الأحرف مساويا لعدد حروف المعجم فإنّ هذه الحروف اشتملت على عدد أنصاف أجناس الحروف : " فمن المهموسة نصفها :الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ،ومن المجهورة نصفها : الألف والميم والرّاء والعين والطاء والقاف والياء والنون

1) تفسير النسفي : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، أبو البركات عبد الله النسفي، دار الفكر ،1/ 10.

2) المرجع نفسه ، ص 9، 10. وانظر: إعجاز القرآن ، الباقلاني، ص68 ، 69 ، 70.

ومـــن الشـــديدة نصفها : الألف والكاف والطاء والقاف ، ومن الرّخوة نصفها : اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون. ومن المطْبقة نصفها : الضاد والطاء ، ومن المنفتحة نصفها : الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون. ومن المستعلية نصفها : القاف والصاد والطاء ،ومن المنخفضة نصفها : الألف واللام والميم والراء والكاف والياء والعين والسين والحاء والنون. ومن حروف القلقلة نصفها : القاف والطاء ... ".[1]

هـــذا غـــيض من فيض ، وقطرة من بحر ، تبقى بعدها هذه الأحرف الفواتح سرّا شامخا ، باعـــثا على الحيرة ، مُؤْذِنًا بعظمة وحكمة وقدرة منزل الكتاب الذي وسع كل شيء علما ، وتمّت كلماته صدقا وعدلا.

1) مباحث في علوم القرآن ، ص 235.

المبحث الثاني:

الإعجاز في المفردات:

شـــهدنا آنفًا طَرَفًا من مظاهر الإعجاز في الحروف القرآنية ، ولا جرم أنّ الحرف هو المادّة الأوليّة لبناء الكلمة ، فمن الحروف تتشكّل المفردات ، وتتكوّن الألفاظ ، وإذا كان القرآن الكريم قد أولى الحـــروف عناية بالغة ، وأهميّة جليّة ؛ حتّى لا نجد حرفًا واحدًا ينبو أو يزيغ عمّا وُضِع له ، فما هـــو حـــظُّ المفـــردة القرآنية – في الكتاب الذي أُحْكِمت آياته – من العناية والاهتمام ؟ وما هي الخصـــائص الـــتي توفّـــرت عليها مفردات سورة هود ، والسِّمات التي ارتقت بها في منازل السُّمو ومقامات الكمال ؟

المطلب الأول: أهمية المفردة وعناية القرآن بها:

قـــال الباقلاّني في كتابه (إعجاز القرآن) :"إنّ الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس ، وإذا كان كذلك يجب أن يتخيّر من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة عن المعنى المراد وأوضح في الدلالـــة عن المعنى المطلوب ، و لم يكن مستكره المطلع على الأُذن ، ومُستكره المورد على النّفس حـــتّى يتأبّى بغرابته في اللفظ عن الإفهام أو يمتنع عن الإبانة . ويجب أن يتنكّب ما كان عليه اللفظ مُبـــتذل العـــبارة ، ركيك المعنى ، سفساف الوضع... وإنّما فُضّلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضـــع...فقد أهملوا[أتي العرب] الألفاظ المستكرهة وأسقطوها من كلامهم ، فجرى لسانهم على الأعدل." (1)

ونحـــن نتبيّن مدى أهمية المفردة في القرآن " من حيث إنّها الوحدة المكوّنة للآيات ، وإنّها عنصر فعّال في توصيل المعنى إلى المتلقّي بصورة بيانية ، ومن حيث إنّ الكلام الرّباني محكم متماسك لا غنى فيه عن مفردة بل عن حرف ". (2)

---

1) إعجاز القرآن ، الباقلاّني ، ص 137.

2) جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير ، أحمد ياسوف ،دار المكتبي ، سوريا ، ط:1 ، 1415هـــ 1994م ،ص327.

وقد عُدَّت فصـــاحة الألفاظ من وُجوه إعجاز القرآن التي اعتمدها العلماء ؛ قال الخطّابي : " فتفهَّم الآن واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزًا لأنّه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مُضمَّنًا أصحّ المعاني". (1)

ولا ريـــب أنّ من أسرار الإعجاز و أمارات التفوُّق التي تجلّت في القرآن الكريم أن " نُزِّلت كـــلماته مـــنازلها على ما استقرّت عليه طبيعة البلاغة ، وما قد يُشبه أن يكون من هذا النحو الذي تمكّنـــت به مفردات النظام الشّمسي ... بحيث لو نزعت كلمة منه أو أزيلت عن وجهها ، ثم أُدير لسان العرب كلُّه على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها ، لم يتهيّأ ذلك ولا اتّسعت له اللُّغة بكلمة واحدة ". (2)

ولمّا كانت الكلمات هي اللّبنات الأولى التي يُقام بها الصّرح البياني العتيد ، فقد أولى القرآن الكريم المفردة اهتماما خاصًّا وأحاطها بعناية فائقة، وأغدق عليها من معين الجلال ، وسكب فيها من سحر الجمال ما بلغت به المنزلة السّامية المرموقة من الفصاحة . " إنّ دارس لفظة القرآن يلمس روعة مـــا فـــيها من الجمال والفن ، وصورة الإبداع التي تشعُّ منها ، وظلال المشاهد الحيّة ، وقوّة الحركة فيها، ومقدار ما تملكه من سيطرة على الوجدان والمخيّلة ، ومدى إثارتها وتأثيرها على النّفس ، وفتح الآفـــاق لتحلّ اللفظة محلّ ريشة رسّام مبدع ؛ فتصوِّر بالألوان والخطوط وتنقش فيها الحياة ، ليعيش الدارس على أرض خصبة تموج بالحركة والإثارة وبالتصوير المتنوّع ". (3)

لقـــد احتوى القرآن أفصح الألفاظ الرائعة المعبِّرة ، التي يتلقّاها السمع بقبول حسن " فأيّ مفردة منه تناولتَها بالفحص وجدتَ حروفها متلاقية متآلفة . وتجد في مفرداته البليغ الرصين الجزل في موطـــنه ، والفصيح القريب في موضعه . ولو استعرضته مرارًا وتكرارًا ما رأيت فيه البتّة لفظًا حوشيًّا موحشًـــا ، ولا هجيـــنًا مذمومًا أو ثقيلاً كريهًا ، ممّا تنفر منه الطِّباع المهذّبـــة أو تـــمجّه الأسماع المرهفة ". (4)

---

1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (بيان إعجاز القرآن) ، الخطّابي ، ص27.

2) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص159 .

3) الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، عمر السلامي ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، 1980م ، ص72 .

4) بينات للمعجزة الخالدة ، حسن ضياء الدين عتر ،دار النصر ، سوريا ، ط :1 ، 1395هـ - 1975م ، ص244 .

المطلب الثاني: خصائص المفردة القرآنية في سورة هود:

لاجرم أنّ لحاف الإعجاز القاهر والجمال الباهر الذي تدثّرت به مفردات سورة هود قد أحكمت نسجه ما توفّرت عليه تلك المفردات من خصائص ومميزات ؛كانت الأجنحة التي حلّق بها التعبير في آفاق الإبداع ، وهي السمات التي تفتقر إليها الأعمال الأدبية مهما أُوتيَ ذووها من حظوظ البيان ، ومهما حازوا من ملكات فطرية أو نبوغ خلاّق ، ولنستعرض الآن بعض هذه الخصائص :

أولا : جمال المفردة وحسن وقعها في السمع:

تمتاز المفردات القرآنية في سورة هود- كما في باقي السور- بجمال أخّاذ وروعة ساحرة ، تُشنّف الأسماع بحسن وقعها ، وتطرب النفوس بجرسها ونغمها ، وتنعش الأرواح بموسيقاها الممتعة الوديعة .

إنّ اللفظة القرآنية لفظة موسيقية مُطربة ، وهي بهذه الخاصية تسهم في خلق الجمال السمعي، وتشعّ قدرًا من التأثير النفسي في كيان المتلقّي ؛ ولا ريب أنّ علاقة النفس بالشيء المسموع وطيدة، " فالأذن منفذ إلى النفس ، وما يثقل سمعه تنفر منه الأذن ثم النفس ". [1]

ولعلّ من أهم العوامل التي تعضُد هذه الخاصية ، والروافد التي تصبّ في بحرها ، ما نراه من انسجام تامٍّ بين حروف المفردة في مخارجها وصفاتها ، وما حلّيت به من خِفّة وسهولة ، وما تميّزت به من جمالية في المدود والحركات .

فإذا قرأنا قول الله -عزّ وجلّ- في قصص نوح ــ عليه السلام ــ: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود:36] ألقينا السمع طواعية إلى جرس هذه المفردة الرائقة الرائعة: (تبتئس) ، وما تُحدثه نغمات حروفها من تطريب ، فالباء تقلقل ، والسين تصفّر، وبينهما همزة ينحبس عندها النفس ثم ينطلق صداه ، فإذا الكلمة وحدها تُؤلّف أغنية ينتشر لحنها في أعماق النفس لتزيل عنها الهمّ المتراكم في صدر النبي المجاهد المحزون .

وكلمة (تزدري) في قوله تعالى :﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾ [هود:31] لو وضعنا مرادفا لها في مكانها لانتقض جمال التعبير، ولهدّ شطر الحسن في الآية

---

1) جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف ، ص173 .

فلـــو كانت مثلاً :(ولا أقول للذين تحتقر أعينكم) لما استساغت آذاننا ثقل هذه اللفظة ، ولا تقبّلت نفوســـنا غلظـــتها وجفاءهـــا ، إنّها كلمة غليظة لا مدّ فيها ولا انسياب ؛ يكتم حرف القاف فيها الأنفـــاس ويقف غُصّة في الخلوق ! بخلاف كلمة (تزدري) في انسجام حروف الزاي والدّال والرّاء وتآخيها موشّاة بالمدّ في المنتهى ؛ إنّها كلمة تُشكّل بمفردها قطعة موسيقية تصغى إليها الأذن ويطرب الوجدان .

ولعـــلّ مـــن أعجب وأعذب ما تتدفّق به ينابيع القرآن الثّرّة الشّيّمة ، تلك الألفاظ التي ما اســـتعملت في كـــلام آخر إلاّ وسمته بوصمة الثّقل ، وألبسته أردية المقت والعيّ والفهاهة ، لطوعها وعســـرها وشدّها وثقلها ، " لقد وَردت في اللغة ألفاظ من هذا القبيل ، استعملها العرب في مواطن فلم يُوفّقوا في استخدامها ، فجاءت كريهة على النّفس ، ثقيلة على السمع ، ينفر منها الذّوق [...] لكن القرآن الكريم حين استخدم مثل هذه الألفاظ في التعبير أوردها في مواطنها في الآيات الكريمة ، وجـــرّدها من كُلّ ما يلحق بها من ثقل أو كراهية ، وأحاطها بالقرائن الدّالّة، والعلامات الهادية حتّى وصـــلت إلى الســـامع دون أن تـــنحرف عن هدفها ، وكانت طيّبة المجرى على اللّسان خفيفة على الأسماع ".[1]

ومن أمثلة ذلك كلمة (ابلعي) في قوله تعالى :﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ [هود:44]، فهي كلمة عسرة على اللّسان ، كريهة على النّفس ؛ لو أُخرجت من نظم الآية واعتبرت بمفردها كانت خليقة بأن تُنتبذ ؛ لما بها من جفاء وخشونة ، ولكن النّظم القرآني خلع عليها – بلمسة سحريّة – من العوامل والأسباب ما كان مدعاة قبولها وارتضائها ، وأصبح اختيارها دون غيرهـــا شاهد فصاحة ودليل بيان . فقد "اختير لفظ ابلعي دون ابتلعي لكونه أخصر ، ولمجيء حظّ التجانس بينه وبين أقلعي أوفر " .[2] والحسن الذي تزيّنه الكلمة بعدما كانت عارية منه ؛ مرجعه إلى ارتـــباطها بغيرها من الكلمات في الآية .قال عبد القاهر الجرجاني: "وهل تشكّ إذا فكّرت في قولـــه تعـــالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. فـــتجلّى لك منها الإعجاز وهمك الذي ترى وتسمع ، وأنّك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظاهرة ، والفضيلة القاهرة، إلاّ لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم

---

1) من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة) ، عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، 1403هـــ 1983 م ، ص 171 .

2) مفـــتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت 226هـــ) ، تعليق : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط: 2 ، 1407 هـــ 1987 م ، ص 419 .

بعضـــها بـــبعض ، وإن لم يعـــرض لهـــا الحسن والشرف إلاّ من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة،وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأنّ الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها ؟

وإنْ شككت فتأمّل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أُخذت من بين أخواتها وأُفردت لأدّت مـــن الفصاحة ما تُؤدّيه وهي في مكانها من الآية ؟. قل (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ." [1]

والقول نفسه ينطبق على لفظة (اعتراك) من قوله تعالى :﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود: 54] فهي كلمة اكتسبت جزالتها وفخامتها وركبت صهوة الفصاحة ، بما هيّأه لها النّظم القرآني من أسباب السهولة والقبول ، وإن كانت من قبلُ نافرة لا تحتوي نغما طروبًا ولا تُبدي جمالاً أو زينة .

هـــذه اللّمسة السحرية هي التي نفخت الروح في موات الكلمات ، وجعلت الرميم نابضًا بالحياة ، وهي سرّ الإعجاز الذي ارتقى به القرآن الكريم في سماوات الفصاحة والبيان ، وهذه اللّمسة الســـحرية هي التي جعلت ألفاظ ومفردات هذه السورة نغمات رخيّة شجيّة تتراقص لها أسماع النّاس طرباً ، وتتّخذ سبيلها إلى قلوبهم سربًا.

ثانيا: الدقّة المتناهية والإحكام البالغ:

إنّ اتّصـــاف كلمات القرآن بالدّقة والإحكام تفسّره شمولية العلم الإلهي وإحاطته بكنه اللّغة وأســـرارها واستعمالاتها ؛ لذلك جاءت مفردات هذه السورة – كغيرها من السور – حاملة للطّابع الرّباني المعجز ، متّسمة بالدّقة المتناهية ، في الوضع والانتقاء .

1. الدّقة في الوضع:

" الكـــلمة في القـــرآن أشبه ما تكون بالعضو في جسم الإنسان ، هو يؤدّي وظيفته عندما يكـــون في موضعه ، فإذا زايله إلى موضع آخر تغير حال الجسم واختل توازنه ، فكذلك الكلمة في القرآن ." [2]

---

1) دلائـــل الإعجاز ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، تعليق : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط:2 ، 1410 هـــ 1989 م ، ص45 .

2) من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)، عبد الفتاح لاشين ، ص140.

" الدقة في الوضع تعني احتلال اللفظة القرآنية موضعها من الجملة، لا تقدم ولا تأخير". [1]

والغايـــة التي تُبتَغى من دقة الوضع هي " الدقة في الوضوح لتكون جليّة أمام الأبصار ؛ لتحدّد الذهن تحديـــدا يســـتوعب المعـــنى المقصود دون زيادة أو تقصير، ولتحتلّ في النفس مكانتها ، فتسري في مساريها الحسّاسة " .[2] فالتحديد الذي نراه ، والدقة التي نلمسها في قوله تعالى:﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: 13] ، هي دقة صنعتها هذه المفردة :"مفتريات " إنما توجّه الذهن لاستيعاب المعنى المقصـــود ، حـــتى يصبح التخلي عنها إخلالا بالمعنى وإنقاصا من المراد ، فـــ(مفتريات) كلمة دقيقة متمكـــنة في موضـــعها ، خدومٌ للغرض الذي جاءت لأجله ، إذ إن معنى (مفتريات): أنها مفتريات المعـــاني كما تزعمون على القرآن أي بمثل قصص أهل الجاهلية وتكاذيبهم ، وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي،فالمماثلة في قوله:"مثله"هي المماثلة في بلاغة الكلام وفصاحته لا في سداد معانيه".[3]

2. الدقة في الاختيار:

" امـــتازت العربية بوفرة كلماتها في المعنى الواحد ، وعلى الرّغم من ذلك فإن بين ألفاظها فروقا دقيقة في دلالاتها .فإذا أنعمت النظر في كتاب الله المجيد وجدته يورد كل لفظ ببراعة فائقة حتى يـــؤدي معناه بدقة بليغة ... وأمثلة هذا كثيرة وفيرة ما تكاد تحصى ، وهي جميعا تنبئك أن كل لفظة قـــد استقرّت في موضعها ، وعبّرت عن المعنى المراد باستيفاء تام لا تقدر عليه كلمة أخرى غيرها إذا أدرجـــت في مكانها. والتزام الدقة مع مراعاة دلالات الألفاظ وإيرادها مواردها بالبراعة الفائقة على النحو الذي حصل في القرآن المبين أمر تعجز عنه الخلائق ".[4]

لقـــد خاطـــب المولى- ﷻ- نبيّه الكريم في معرض إلـــهاب همّته ودفع الفتور عنه ، وشد أزره في مواجهة استهزاء واستكبار الطاغين ، فقال -ﷻ-:﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾[هود:12].

---

1) الإعجاز الفني في القرآن ، ص72.

2) المرجع نفسه ، ص73.

3) التحرير والتنوير ، 12 / 20.

4) بيّنات المعجزة الخالدة ، ص252.

إنّ بشـــرية الرســـول-ﷺ- تقتضي أن يَمَسَّه طائف من الحزن ، وينالَه نصيب من ضيق الصدر ؛ وهو يرى العناد والتّولّي والاستهزاء والمكر يذهب بالمشركين في كلّ مذهب ، وقد اختيرت لفظـــة (ضائق) لتضـــطلع بأداء هذا المـــعنى دون سواها ، فلم يقـــل الحـــق -ﷻ-:" (ضيّق) بل قـــال (ضائق به صدرك) ، " وإنّما عدل عن أن يقال (ضيّق) هنا إلى (ضائق) لمراعاة النظير مع قوله (تـــارك) لأنّ ذلك أحسن فصاحة ، ولأنّ (ضائق) لا دلالة فيه على تمكّن وصف الضيق من صدره بخـــلاف (ضـــيّق) ، إذ هو صفة مشبّهة ، وهي دالّة على تمكّن الوصف من الموصوف ، إيماء إلى أنّ أقصـــى ما يُتوهم توقّعه في جانبه -ﷺ- هو ضيق قليل يعرض له ".[1] قال الزمخشري(538هـــ) : " فـــإن قلت لم عدل عن ضيّق إلى ضائق ؟ قلت : ليدلّ على أنّه ضيق عارض غير ثابت، لأنّ رسول الله -ﷺ- كـــان أفسح النّاس صدرًا . ومثله قولك: زيد سيّد وجواد ، تريد السّيادة والجود الثابتين المستقرين ،فإن أردت الحدوث قلت : سائد وجائد ".[2]

والقرآن الكريم في عملية اصطفاء الألفاظ وانتقائها " قد يختارلفظا في بعض الآيات ليؤدّي معنًى معيّنا ، وفي الغرض نفسه يختار لفظا آخر، فيتوهّـــم السامع أنّ اللّفظين سواء في الدلالة ، مثلان في المضـــمون ، فيقع تحت وطـــأة الشّك ويتساءل : لماذا عبّر بـــهذا اللفظ هنا ، وعبّر بهذا اللّفظ هناك ؟ ".[3]

هذه آية تترجم هذا الكلام وتوضحه : قال الله -ﷻ-في قصص نوح - عليه السلام - : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هود:29] ؛ فلماذا قال : (مالا) ولم يقـــل (أجرا) كما في قصص هود -عليه السلام - : ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [هود: 51] ؟ أليس المال أجرا؟ فلم اختلف اللفظان ؟ ثم لماذا قال نوح (إن أجري) ولم يقل(إن مالي) مناسبة لما قبلها ؟

نحســـب -والله أعـــلم- أنّ القضية تتجاوز التنويع في الخطاب وصيغه تفنّنًا في الكلام إلى معان أشرف وألطف : " لعلّ قوم نوح كانوا يقولون -في بدء دعوته- : (إنّه يقول ما يقول ليبتزّ منّا

---

1) التحرير والتنوير ، 12/ 16.

2) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، محمود بن عمر الزمخشري ، دار الكتاب العربي ، دت ، 2/ 382.

3) من أسرار التعبير في القرآن(إصغاء الكلمة) ، ص152.

مـــالاً) فأجـــابهم بما يقارب لفظهم: ﴿ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالاً ﴾ قالوا ذلك لأنّهم لم يعترفوا أنّه يســـتحقّ (أجرا) لأنّه لا يقول شيئا يهمّهم أو يفيدون منه ، لأنّ الأجر يكون مقابل (عمل) ترضاه الجماعـــة ، ونوح لم يقدّم عملاً يرضونه ".[1] فلذلك قال نوح ردًّا عليهم : ﴿ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالاً ﴾ . ثم قـــال –عليه السلام– : ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ وفي هذا الكلام احتراس منه "لأنّـــه لمّا نفى أن يسألهم مالاً ، والمال أجر، نشأ توهّم أنّه لا يسأل جزاء على الدعوة فجاء بـــجملة ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ احتراســـا . والمخالفـــة بين العبارتين في (مالا) و(أجري) تفيد أنّه لا يسأل من الله مالا ولكنه يسأل ثوابًا".[2]

إنّ مجـــيء كلمات سورة هود على هذا المستوى العالي من الدّقة والإحكام والإتقان خلق تناســـقًا عجيـــبا بين الألفاظ ، وتجاوبا أليفا لطيفا بين المفردات ؛ حتّى إنّنا " لا نجد كلمة تنشز عن سابقتها أو لاحقتها في أداء الغرض وبيان المقصود".[3]

وفي عملية التعبئة الشاملة –عند فوران التنور– صدر الأمر الإلـــهي لنوح –عليه السلام– : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ ﴾ [مود:40] نلاحظ أنّه جاء هنا بفعل الأمر(احمل) . وفي سورة المؤمنون قال –ﷻ–:﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ ﴾ [المؤمنون:27] فجاء بفعل الأمر (اسلك) والسّـــبب في هـــذا الاختلاف مع أنّ القصّة واحدة هو" أنّ الله تعالى في سورة هود قال : "ويصنع الفلـــك" وفي ســـورة المؤمنون لم يذكر هذه العبارة ، بل اكتفى بقوله:﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ ، ولا شـــكّ أنّ عـــبارة (ويصنع) إضافة إلى أنّها تضعك في قلب الحدث ، فهي توحي بالجهد والتعب اللذين كان يعاني منهما نوح –عليه السلام– وهو منهمك في صنع السّفينة . ومع أنّ الحمل والسّلك كل منهما يعني أنّ نوحا (أدخل) ما أمره به ربّه في السفينة ، غير أن (الحمل) فيه من المشقّة أكثر مما في(السّلك).

---

1) الإعجـــاز اللغوي في قصص نوح –عليه السلام – في القرآن ، د. عودة الله منـــيع القيسي ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان، الأردن ، ط:1، 1422هـــ ـــ 2002م ، ص50.

2) التحرير والتنوير ، 12/ 55.

3) من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة) ، ص239.

فالحمل فيه معاناة واضحة ، أما السلك فأمر هيّن يسير، ولا ريب أن الفعل الشاق: (الحمل) يتجاوب مع الفعل الشاق :(ويصنع الفلك) وينسجم معه أكثر من تجاوب الفعل غير الشاق: (فاسلك) ومن انسجامه معه كذلك ".[1]

ثالثا: الإيحاء والتصوير الفني:

ألفاظ القرآن الكريم ألفاظ موحية معبّرة ، تمنح النفس مفاتيح الدخول إلى جنان الكتاب العزيز، وتترك المخيّلة سارحة في روضاته العبقات تجتني ثمرا مختلفا ألوانه ، وتجتلي لطائف الصور والمعاني.

"الإيحاء في القرآن صفة ملازمة لألفاظه ، تقوم بتدقيق معالم الصور التي تعرضها الآية ، وتبدع المخيّلة سابحة في أبعاد المعاني وأهدافها . إنّ القارئ ليستطيع بحكم ما تملكه لفظة القرآن من قوّة في الإيحاء أن يغوص في المعنى الباطني للآية ، وأن يفتح آفاقها ويلج في منعرجاتها وما تُخفيه من أسرار ومعان دقيقة ."[2]

وهذه مفردات سورة هود تُمدُّ الذهن -بإيحاءاتها العميقة- بديعَ المعاني وجليل المدارك ، فكلمة (أخبتوا) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۢبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [هود:23] كلمة موحية " تُصور حال المؤمن مع ربه ، وركونه إليه واطمئنانه لكل ما يأتي به ،وهدوء نفسه وسكون قلبه، وأمنه واستقراره ورضاه ."[3]، فمعنى (أخبتوا إلى ربهم) " اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع ، من الخبت وهي الأرض المطمئنّة ".[4]

والإيحاء يكون ـــ أحيانا ـــ " مستمَدّا من جوِّ المعنى العام ، وتتقمّص اللفظة ذلك المعنى لتنفرد بالإيحاء " .[5] ، ففي جو الضراعة والخشوع ، وفي مقام الإشفاق من خشية الله والتبتّل إليه تعرض أمامنا سورة هود مشهد نوح وهو يناجي ربّه مسترحمًا : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ

---

1) الإعجاز اللغوي في قصص نوح ، ص108.
2) الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، ص99.
3) في ظلال القرآن ، 4/ 1868.
4) الكشاف ، الزمخشري ، 2/ 387.
5) الإعجاز الفني في القرآن ، عمر السلامي ، ص101.

أَسْـَٔلْكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [هود: 47] .إنّ ما تتضمّنه لفظة (ترحمني) –من جرس حروفها إلى المدّ المشبع في ختامها إلى ما تحمله من عمق ومعاني ولفتات– يجعلها كفيلة بإيحاء شتّى معاني التضرُّع والخشوع والخوف والرّجاء ، والافتقار إلى الرحمة الإلهية والطّمع فيها بالتّذلُّل إلى العزيز الجبّار .

إنّ المفردة القرآنية –إضافة إلى إيحائها القويّ وتألّقها الباهر– تشعّ بالحياة وتنبض بالحركة؛ إنّها مفردة ناطقة مضيئة شفّافة ، تتّخذ من التصوير الفنّي أداة لإيفاد المعاني وتقديمها للأذهان مُوَشّاة بـــرونق العـــرض والإخراج ، وهي بذلك تسهم في استحضار المشاهد وإحياء الشّخوص عن طريق التجسيم والتّخييل الحسّي .

يقـــول سيد قطب إنّ " التصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبّر بالصورة المحسّـــة المتخـــيّلة عـــن المعنى الذهني و الحالة النفسية " [1] ، وتقوم المفردات بدور أساسيّ في عملية التصـــوير هـــذه ؛ إذ تساعد على تشكيل الصور وبناء المَـــشاهد وتجســـيد المعنى وإضفاء الحركات والألوان والظـــلال ؛ ففي قـــول الحق – ﷻ– في قصـــص شعيب –عليه السلام– :﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ ﴾ [هود:92] نجد كلمة (ظِهْرِيًّا) تتّخذ السمت الإعجازي في وضع اللّمسة الأخيرة لإخراج معنى الترك والانتباذ والإعراض إلى مجال الحِسّ، برسم صورة تراها عين القلب ويتملاّها الخيال ."والمراد بالظِهريّ الكناية عن النّسيان ، أو الاستعارة؛ لأنّ الشـــيء الموضوع بالوراء يُنسى لقلّة مشاهدته ، فهو يُشبه الشيء المجعول خلف الظّهر في ذلك ، فوقع(ظِهْرِيًّا) حالا مؤكّدة للظّرف في قوله (وراءكم) إغراقًا في معنى النّسيان لأنّهم اشتغلوا بالأصنام عن معرفة الله أو ملاحظة صفاته ".[2]

" وقد يستقلّ لفظ واحد – لا عبارة كاملة – برسم صورة شاخصة – لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة – وهذه خطوة أخرى في تناسق التصوير "(3) ؛ وقد تكفّلت كلمة واحدة برسم وتجسيم الغلّ المضطرم في ثنايا الصدور الكافرة والنّفوس الحاقدة –وهي تستقبل دعوة الحق–

---

1) التصوير الفنّي في القرآن ، سيد قطب ، دار المعارف، القاهرة ، ط :9 ، دت ، ص34.

2) التحرير والتنوير ، 12/ 151.

3) التصوير الفنّي ، ص78.

في صـــورة شـــفّافة واضحة فاضحة ؛ تلك هي كلمة (يَثْنُونَ) في قوله تعالى :﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [هود:5] هذه الكلمة تجسّد الوضع الحسّي الذي يتّخذه المشركون وهم "يزورّون عن الحق وينحرفون عنه؛لأنّ من أقبل على الشيء استقبله بصدره ، ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ".(1)

ونـــرى صـــورة الموج الهادر العاتي وهو يلتطم رجّافًا طاغيًا على الذُّرى ؛ ويرسم التعبير القرآني جوّ الفزع ويُلقي بظلال الرهبة في النفوس مستخدما -لوصف عظمة الموج الصّاخب المزمجر- مفـــردة واحـــدة جسّدت الصورة وشخّصت المنظر ، قال تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود:42] ؛ وتمـــتزج في الخـــيال صورة الجبال الضّخمة الشّامخة وصورة الموج المُزبد الطّامي ، ويتشكّل المشهد من لفظة ولفظتين .

ولـــلحركة إسهام في تصوير المشهد ووضع اللّمسات الفنيّة على أحداثه ، وإحياء شخوصه واستحضارها ، "والحركة في ألفاظ القرآن الكريم تكون قويّة وتارة هادئة ولكنها عميقة في دلالتها ، وتُسهم فيها الصّيغة ونطقها وجرسها وإيقاعها ، ويأخذ فيها التصوير طابع الدّقّة والإحكام، وهي في ذلك كلّه تخلع الحياة على الكائنات الطّبيعية أو المتحرّكة التي تزيدها حركة فوق حركتها "(2) ، فإذا تأمّلنا قوله تعالى في قصص لوط -عـــليه السّلام- : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:78] وجدنا هذه المفردة (يُهْرَعُونَ) تصوّر جوانب عدّة من مشهد قوم لـــوط - وهم يســـعون نحو بيت نبـــيّهم يبتغـــون السّوء والأذى بضيـــفه - ؛ فهي تُجسّد تلك الحـــركة الســـريعة المحمومـــة التي تومئ إلى الرّغبة الجامحة في السّعي إلى تحقيق مطلب ملحّ ، فهم لا (يســـعون) فحسب بل (يُهْرَعُون) ، كما يوحي جرس المفردة وإيقاعها بحركة انفعالية شديدة تجسّد الحالـــة النّفســـيّة الهستيريّة التي طبعـــت سلوك القوم ووجّهت تصرّفاتهم . وكلمة (يُهْرَعُون) تجتمع فيها قوّة الإيحاء بروعة التصوير ودقّته ؛ وحين تلتقي هاتان الميزتان في مفردة واحدة يبلغ الإبداع الفنيّ في التعبير أقصى مداه ، وينطلق بفكر القارئ وخياله في دروب المتعة والفن والجمال .

---

1) الكشاف ، 2/ 378.

2) الإعجاز الفني في القرآن ، ص90.

رابعا: التكرار و الحذف :

تكـــرّرت بعـــض المفردات في القرآن الكريم بشكل لافت للانتباه ، داعٍ للتأمّل . وظاهرة التكرار خاصيّة مميّزة في التعبير القرآني تقف حُجّة للكتاب المبين وبرهانا على إعجازه ، وحسنةً تزيد من جمالية الأداء ورونق التعبير.

ونحـــن واجـــدون في سورة هود أمثـــلة رائعة لظاهـــرة تكرار المفردات ، وما كان لذلك التكرار أن يرد اعتباطا ، بل خدمة لغرض يستوجبه المعنى ويقتضيه السّياق ، و " الكلمة في الحقيقة قد تـــتكرّر ثـــلاث مرات أو أربع مرات في جملة واحدة إذا كان لايُغني عنها غيرها ، لأنّ الكلمات تبعٌ للمعاني وليس العكس ".[1]

عندما نقرأ قول الله –ﷻ–: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود:38] نجد تكرارا لكـــلمة (سخر) التي وردت في الآية أربع مرّات على هذا الشّكل : (سَخِرُوا – تَسْخَرُوا – نَسْخَرُ – تَسْـــخَرُونَ) ، وهي في تكرّرها – إضافة إلى صنع أجواء السّخرية وإشاعة معاني الاستهزاء في موقف الأخذ والـــردّ بين نوح وقومه– تتلاءم في تناسق كبير مع السياق والـــمعنى ؛ فقد قـــال الله تعالى: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ في بدايات الآية الكريمة ، "والظّرف (كلّما) الذي فيه معنى الشـــرط يُعـــطي الصّورة أبعادًا لا يعطيها قولنا (فلمّا مرّعليه ملأ من قومه) لأنّ (كلّما) تعني التكرار ؛ نوح دائب في صنع السّفـــينة وأفواجُهـــم دائبة في المرور به والسخرية مما يقوم به "[2]. وهكذا يأتي التعبير بتكرار المفردة متناسقا ومناسبا لتكرار الموقف.

وفي قـــصـــة نوح –وهو يجادلُ في الحـــق بعدما تبيّن– يقول له قومه بكل سفاهة وعناد : ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:27] ،نجد كلمة (نراك) تتكررّ مرّتين ، ومـــرة ثالـــثة بلفظ (نرى) ، وتعبير الملأ من قوم نوح عن اعتقاداتهم الزائفة بهذا اللفظ فاضح للشّكّ الذي تأسّست عليه هذه الاعتقادات . إنّ تعبير القرآن الكريم في هذه الآية عن موقف الكافرين بديع

---

1) الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام في القرآن ، ص101.

2) المرجع نفسه ، ص99.

ومعجـــز ؛ " لقد كشف ما يعتمل في شعورهم ولاشعورهم بأبلغ عبارة وأبين بيان . إنّهم لم يجزموا لأنّهم استخدموا (ما نراك) في العبارات الأولى ، وهي لا تكافئ : (ما أنت إلاّ بشر مثلنا) ولا تكافئ (لم يتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا) لأنّ الرؤية لاجزم فيها ".[1] ولمّا تكرّرت في كلامهم كلمة (الرؤية) "قـــابل نوح-عليه السلام-كلامهم مقابلة بالمعنى واللّفظ إذ جعل عدم رؤيتهم من قبيل العمى" [2] :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:28] .

وفي مقـــابل ظاهرة التكرار ، نجد(الحذف) ظاهرة بارزة في أسلوب القرآن الكريم ، " فقد يحـــذف التعبير القرآني من الكلمة [...] وكلّ ذلك لغرض وليس اعتباطا ، فالتعبير القرآني تعبير فنّيّ مقصـــود ، كلّ كلمة بل كلّ حرف إنّما وُضع لقصد" [3]، وليس عجيبا أن تنطوي عملية الحذف هذه على معان جليلة في الكتاب الذي أُحكمت آياته . فكلمة (تَذَكَّرُونَ) في قوله تعـــالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: 24] حُذفـــت منها إحدى تاءين ، في حين وردت هذه الكلمة بتاءين في آية من سورة الأنعام ؛ إذ يقـــول الحقّ-ﷻ-في قصص إبراهيم -عليه السلام- : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:80] . وسبب هذا الحذف في سورة هود أنّ ما تُقدّمه الآية من معنى "لا يحتاج إلى طـــول تأمّل أو تذكّر أو تفكير، فإنّك إذا سألت أيَّ فرد من عقلاء خلق الله : هل يستوي رجل أعمى أصم ورجل بصير سميع؟ أو هل يستوي الأعمى والبصير والأصم والسميع ؟ كان جوابه: كلاّ لا يســـتويان ، فحذف من الفعل للدلالة على أنّ هذا لا يحتاج إلى طول تذكّر و تأمّل " [4] وفي آية سورة الأنعام وردت الكلمة كاملة (تَتَذَكَّرُونَ) عقب مُحاجّة إبراهيمَ قومَه و إيراده الأدلّةَ التي تحتاج إلى طول تذكّر وتفكّر.

---

1) المرجع نفسه ، ص39، 40.

2) التحرير والتنوير ، 12/ 52.

3) من بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، فاضل صالح السامرائي ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط:2 ، 1422هـ -2001م ، ص11

4) المرجع نفسه ، ص20، 21.

وقـــد تُحـــذف كلمة بحالها من الآية لقيام الدلالة عليها ، أو لاقتضاء السّياق حذفَها ، أو لتقدّم ذكرها ؛ مثال ذلك قوله تعالى في قصص هود -عليه السلام- : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود:60] ، ثمّ قوله -ﷻ- في ذكر موسى- عليه السلام-وإرساله إلى فرعون وملئه : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود:99] ،

فكـــان الإتـــيان في الآية الأولى بالموصوف والصّفة جميعا وهو الأصل الأول ، ثمّ الاكتفاء بالصـــفة عن الموصوف بعده لقيام الدلالة عن الموصوف ، فيجوز لذلك حذفه وإقامة الصفة مقامه ، ولمّـــا جاءت الآيتان في سورة واحدة ، وُفّيت الأولى ما هو أولى بها من الإجراء على الأصل والإتيان بالموصـــوف ، فقـــال تعالى :(في هذه الدنيا) واكتفى في الثانية -لمّا قامت الدلالة على الموصوف- بالصّفة وحدها فقال : (وأتبعوا في هذه لعنة...) ".[1]

إنّ المفـــردة القرآنية تحمل بذور الخصب لتؤتي ثمار الإعجاز في حدائق القرآن ، وما الميزات والخصائص التي اتّسمت بها مفردات هذه السورة إلاّ تجلّيات لروح ذلك الإعجاز، ومظهر من مظاهر ارتقاء أسلوب القرآن في علياء الإبداع الفنّي وصدق المولى -ﷻ-إذ قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام:115].

---

1) درّة التنزيل وغرّة التأويل (برواية أبي الفرج الأردستاني) ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي (ت 420 هـ) ، تحقيق : دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط:3 ،1979م ، ص121، 122.

المبحث الثالث:

الإعجاز في الفواصل

هـــذا المبحـــث تتمّة واستكمال لتلك الجولة الممتعة التي أخذتنا فيها كلمات نديّة أثيرة إلى جنان القرآن ، وطافت بنا في فراديس الحكمة والبيان ؛ فوقفنا على بعض مظاهر الإعجاز اللّغوي في سورة هود ؛ بمحاولة استكشاف جماليات المفردة القرآنية واستجلاء صفاتها الفنيّة ، وتتمّة لهذا المسعى أحاول الآن دراسة بعض المفردات الخاصّة في السورة والوقوف على مظاهر الإعجاز فيها ، وهي التي اصطلح على تسميتها بالفـــواصل :

"يستصـــغي سمعك ويسترعي انتباهك في أواخر الآيات القرآنية طابع خاص يُسمّيه علماء القرآن : الفاصلة . والفاصلة كلمة تُختـــم بها الآية فتُتـــمّ معناها ، وتتناغم مع وقعـــها الصّوتي في الأذن ".[1]

والفاصـــلة طريقة تفرّد بها القرآن ، وتميّز بها أسلوبه عن باقي أساليب العرب ؛ الذين عرفوا قافـــية الشّعر وسجعة النّثر في خواتيم الكلام ، فدمغتهم المعجزة القرآنية بهذا الختام المسكي البديع المـــباين لما اعتادوه . قال الزركشي : "وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها ؛ وهي الطريقة التي باين القرآن بها سائر الكلام ، وتسمّى فواصل لأنّه ينفصل عندها الكلامان ؛ وذلك أنّ آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها ."[2]

ولقد فرّق العلماء والدّارسون بين الأسجاع والفواصل باعتبار أنّ " السجع هو الذي يُقصد في نفسه ثم يُحيل المعنى عليه ، والفواصل هي التي تتبع المعاني ، ولاتكون مقصودة في نفسها " .[3] وفي كتابه (إعجـــاز القـــرآن) عقد الباقلاّني فصلاً في نفي السّجع من القرآن [4] . وفاضل الرّماني بين الفواصل والأســـجاع بقولـــــه: " والفواصل بلاغة والأسجاع عيب ؛ وذلك أنّ الفواصل تابعة للمعاني وأمّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها ".[5]

---

1) بيّنات المعجزة الخالدة ، ص255.

2) البرهان في علوم القرآن ، 1 / 54.

3) المرجع نفسه.

4) انظر: إعجاز القرآن للباقلاّني ، ص83 وما بعدها .

5) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (النكت في إعجاز القرآن للرماني) ، ص97.

المطلب الأول: جمال الفاصلة ودورها في التأثير النفسي :

ليســـت الفاصلة معجزة بانفرادها ؛ ولكنّها لبنة هامّة يكتمل بـــها صرح الإعجاز ويعتلي "فإذا وقفت على تماثل أنغام الفواصل أحيانًا وتقاربها أحيانًا أخرى ، وعلى انسجام كُلٍّ منها مع جـــرس الكلمات وإيقاع المقاطع في آيها أدركت أنّ هاهنا سرًّا عظيما من أسرار الإعجاز البياني يأسر قلوب البشر ويستعصي على عبقريا تهم ".[1]

وتنقسم الفواصل – بحسب حرف الرويّ – إلى قسمين:" أحدهما على الحروف المتجانسة والآخر على الحروف المتقاربة "[2] ؛ قال الزّركشي : " إنّ الفواصل تنقسم إلى ما تماثلت حروفه في المقاطع – وهذا يكون في السّجع – وإلى ما تقاربت حروفه في المقاطع وهذا لا يكون سجعا . ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين – أي المتماثل والمتقارب – من إن يأتي طوعا سهلا تابعا للمعاني، أو مـــتكلفا يتـــبعه المعنى ؛ فالقسم الأول هو المحمود الدال على الثـــقافة وحسن البيان ، والثاني هو المذموم . فأما القرآن فلم يرد فيه إلاّ القسم الأول لعلوّه في الفصاحة ."[3]

وتتنوّع فواصل سورة هود بين المتماثل والمتقارب ، وهي تنتهي بـــهذه الحروف : (ق ، ص ، د ، ت ، ل ، ن ، ظ ، م ، ط ، ب ، ر، ز، ذ) يجمعهـــا بعضـــهم بقولـــه :"قصدت لنظم طبرزذ".[4]

" وتُحـــسّ عندما تسمع القرآن أو تتلوه أنّ لهذه الفواصـــل نغمات نفسية معنوية ، وإيقاعا يُعطيك متعة فنية مؤثرة ، تبثُّ في فؤادك الطمأنينة و الارتياح ".[5]

ولا شكّ أن أجمل ما تحمله الفواصل القرآنية في شكلها جرسُها الموسيقي وإيقاعها الرخيّ الشجيّ ؛ الذي يحمل النفوس الطروبة على الانصياع إلى اللحن الخالد الفريد ، " وما هذه الفواصل

---

1) بيّنات المعجزة الخالدة ، ص260.

2) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص98.

3) البرهان في علوم القرآن 1/ 72.

4) بصائر ذوي في لطائف الكتاب العزيز ، الفيروزبادي ،1/ 246.

5) بينات المعجزة الخالدة ، ص 256.

التي تنتهي بها آيات القرآن إلاّ صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وهي متّفقة مع آياتها في قـــرار الصوت اتفاقا عجيبا يُلائم نوع الصوت والوجه الذي يُساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهـــب ، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها ، أو بالمد ، وهو كذلك طبيعي في القرآن ، فإن لم تنته بواحدة من هذه ، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى ، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه ... وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة ، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على أيّ حال إلاّ الإقرار والاستجابة ". [1]

إنّ شجى النّغم المنبعث من رؤوس الآي جعل بعض الباحثين"ينظر إلى الفاصلة – أو السجع – في الكلام على أنه مناسبة لفظية مرغوبة ومطلوبة في اللغة العربية فهي تريح القارئ ، وترشده إلى تلويـــن الصـــورة ، وإجادة الوقف ، وتزيد من روعة التلاوة ، بما تخلع عليها من إيقاع محبب ، وتمد القرّاء بألوان من التـــنغيم المؤثر والتطريب الأخّاذ". [2]

المطلب الثاني: القيمة المعنوية للفاصلة وعلاقتها بما قبلها:

نجد في تعريف القدماء للفاصلة تشبيها لهـــا بقافية الشّعر أو قرينة السجع ، حتّى يظن كثير مـــن الناس أنّها " محاولة توجيه النظر إلى الجرس الصوتي ، والملائمة اللفظية أكثر من لفت النظر إلى المواءمة الدلالية والارتباط العضوي بين مضمون الآيات وخواتمها، وليس هذا صحيحا على الإطلاق، حتى إنّ بعض القدماء قد لاحظ في الفواصل القرآنية تبعيّتها للمعاني ". [3] فليست فواصل القرآن مجرّد توافق ألفاظ وأوزان، بل هنا ارتباط وثيق بالمعاني . يؤكّد الرّماني هذه الفكرة في تعريفه للفواصل

---

1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص154،153.

2) من أسرار التعبير في القرآن الكريم (الفاصلة القرآنية)، عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ للنشر، الرياض، 1402هـــ1982م ، ص.437.

3) الفاصـــلة القرآنية بين ملاءمة اللفظ ومراعاة المعنى ، د احمد مختار عمر، مجلة الدراسات القرآنية، العدد:1 نشر: مركز الدراسات الإسلامية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية، لندن،1999 م ، ص238.

بأنّهـــا: "حـــروف متشـــاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني "[1]، ويقول في المقام نفسه : "وفواصل القرآن كلّها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يُحتاج إليها في أحسن صورة يدلّ عليها". [2]

وهو عين ما ذهب إليه الباحثون والدارسون المحْدَثون الذين " لم يميلوا إلى جانب سيطرة الشّكل على المضمون ، فهم يعترفون برنّة الفاصلة من حيث هي قرار مُوحٍ ، وترجيع رائع ، ولكن هذا مرتبط أشدّ الارتباط بالمعنى ".[3]

وهكـــذا تتجلّى القيمة المعنوية للفاصلة القرآنية وتتّضح لنا شيئا فشيئا ، لنقف بإزاء سؤال مُلحّ عن تمكّن الفاصلة في سورة هود ، وعلاقتها بما قبلها ، ومدى ائتلاف الفواصل مع ما يدلّ عليه الكلام .

قـــال الزّركشـــي : " اعـــلم أنّ من المواضع التي يتأكّد فيها إيقاع المناسبة مقاطعُ الكلام وأواخره ، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله . فلا بدّ أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أوّلاً ؛ وإلاّ خرج بعـــض الكـــلام عن بعض . وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك ، لكن منه ما يظهر ومنه ما يُستخرج بطول التأمّل للّبيب ".[4]

وهـــذا الائـــتلاف منحصـــر في أربعة أنواع " وهي ما سمّاه البلاغيون بالتّمكين والتّوشيح والتصـــدير والإيغال ".[5] والفرق بينها ؛ أنّه إن تقدّم لفظها بعينه في أوّل الآية سُمّي تصديرًا ، وإن كـــان في أثـــناء الصّدر سُمّي توشيحًا ، وإن أفادت معنًى زائدًا بعد تمام معنى الكلام سُمّي إيغالاً ؛ وربّمـــا اختلط التّوشيح بالتّصدير لكون كُلٍّ منهما صدرُه يدلّ على عجزه . والفرق بينهما أنّ دلالة التصدير لفظية ودلالة التوشيح معنوية ".[6] وهذا الآن تفصيل لهذه الأنواع الأربعة :

أولا - التمكين:

"وهو أن يُمهّد قبل الفاصلة تمهيدا تأتي به الفاصلة مُمكّنة في مكانها ، مستقرّة في قرارها،

---

1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (النكت في إعجاز القرآن) ، الرماني ، ص97.
2) المرجع نفسه ص98.
3) جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف ، ص 315
4) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، 1/ 78.
5) من أسرار التعبير في القرآن (الفاصلة القرآنية) ، عبد الفتاح لاشين ، ص39.
6) البرهان 1/ 78، 79.

مُطمئنّة في موضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، مُتعلّقا معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقا تامّا بحيث لو طُرحت لاختلّ المعنى واضطرب الفهم".[1]

ومن أمثلة ذلك في سورة هود قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾.[هود: 87] فنلاحظ تمكّن ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ حيث إنّه " لمّا تقدم ذكر العبادة والتصرّف في الأموال ، كان ذلك تمهيدا تامّا لذكر الحِلم والرّشد لأنّ الحِلم هو العقل الذي يصحّ به التكليف في العبادات ، والرّشد هو حسن التصرّف في الأموال فكان آخر الآية مناسبًا لأوّلها مناسبة معنوية ".[2]

وكثيرًا ما نجد علاقة التمكين في الفواصل المكوّنة من أسماء الله الحسنى،فمن ذلك قول الحق -سبحانه وتعالى- في مطلع السورة : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: 1] عند اقتران هذين الاسمين في كتاب الله تعالى يجيء الاستعمال القرآني دائما بتقديم (الحكيم) وإردافه بـ (الخبير) كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:18] ، وقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام :73]، وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبأ:1] . ولئن كان اختيار هذين الاسمين يخدم توافق الفواصل في حروف الرّوي فإنّ مراعاة خواتم الآيات لمضامين ما جاء قبلها هو السبب الأساسي في التقديم والتأخير من ناحية ، وفي اختيار هذين الوصفين من ناحية أخرى ؛ وإذا تأمّلنا آية سورة هود " وجدنا التلاحم واضحا بين مضمونها وختامها ، فإحكام آيات القرآن وسلامتها من الخلل والبطلان والتناقض قابله (الحكيم) ، وتفصيل هذه الآيات بما اشتملت عليه من أحكام ، وما بيّنته من دلائل التوحيد قابله (الخبير) الذي يعني الإحاطة بدقائق الأمور والعلم بتفاصيلها ".[3]

ولا جرم أنّ تمكّن الفاصلة شاهد على الإعجاز اللّغوي للقرآن ، ودليل قائد إلى أسرار

---

1) المصدر السابق ، ص80.

2) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

3) الفاصلة القرآنية بين ملاءمة اللفظ ومراعاة المعنى ، أحمد مختار عمر ،ص223، 224.

التعـــبير القرآني ولذلك قال عنه الزركشي : " وهذا الباب يُطلعك على سرّ عظيم من أسرار القرآن فاشدد يديك به".[1]

"ومن بديع هذا النوع اختلاف الفاصلتين في موضعين والمُتحدَّث عنه واحد لنكتة لطيفة"[2] كقوله تعالى في هذه السورة عن الكفار:﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾[هود:22] وقوله-ﷻ-عنهم في موضع آخر:﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴾[النحل:109] فقـــد يتـــبادر إلى الذّهن سؤال عن تخصيص كل واحد من اللّفظين بمكانه دون الآخر."والجواب أن يُقال: الآية التي في سورة هود قد تقدّمها قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ [هود:20] ، وإنّمـــا قال: ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ ﴾ ؛ لأنّه أخبر عنهم بـــالفعل الذي استحقوا به مضاعفة العذاب في قوله تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [هود:19].فإذا صدّوا هم عن الدين صدودًا وصدّوا غيرهم عنه صدًا استحقّوا تضعيف العذاب؛لأنّهم ضلّوا وأضلّوا ...وأمّا الـــتي في (النحل) فإنّها في آية لم يُخـــبر فيها عن الكفار بأنهم مع ضلالتهم أضلّوا من سواهم، وإنّما قال فيهم:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل: 107] فلم يذكر ما يُوجب مضاعفة العذاب ".[3]

وقـــد تحتاج معرفة تمكّن الفاصلة من هذه الناحية إلى تأمّل دقيق ، فقد تختلف الفاصلتان في سورة واحدة وفي مقام متشابه السّمات،ثمّ لا يكاد يُدرَك سرّ ذلك الاختلاف إلاّ بنظرة ثاقبة ، وتدبّر يتغلغل فاحصا للطّائف التنزيل.لنتأمّل قولـــه تعالى : ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود:2] ، وقوله -ﷻ- في السورة نفسها : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود:25] . المقامان كلاهما مقامًا تقريرٍ لحقيقة النبوّة ، وإثباتٍ لـــلرسالة ؛ رسالة محمد - ﷺ- في الآية الأولـــى ، ورســـالة نوح

1) البرهان في علوم القرآن ، 1 / 79.

2) المرجع نفسه ، ص86.

3) درّة التنزيل وغرّة التأويل ، الخطيب الإسكافي ، ص 119، 120.وانظر: ملاك التأويل ، أحمد بن إبراهيم الغرناطي، 2 / 650، 65.

-عليه السلام - في الآية الثانية . فلماذا اختلفت الفاصلتان مع الاتفاق في مقام الورود ؟ هل السبب هو مراعاة التلاؤم بين الفاصلتين في حروف الرّوي أم وراء ذلك معنى شريف وسرّ لطيف ؟

قد يكون لتوافق رويّ الفواصل دور في خلق الجمال اللّغوي ؛ ففاصلة (بشير ونذير) تتوافق وتستجانس مع فواصل الآيات المحاذية لها (حكيم خبير، كبير، الصدور) ، وفاصلة (نذير مبين) تتلاءم في حسن وقعها مع فواصل الآيات المجاورة لها :(تذكّرون ، أليم ، كاذبين) . بيد أنّ تمكّن هذه الفاصلة وتلك أقامه معنى عظيم يكشف عنه تأمّل الآيات : " إنّ عبارة (نذير مبين) قد وردت على لسان نوح ثلاث مرات : مرّة في سورة [هود:25]، ومرّة في سورة [الشعراء:115] ، ومرة في سورة [نوح:2] ، ولم ترد عبارة (بشير نذير) على لسانه إطلاقا ، في حين وردت على لسان نبيّنا محمد - ﷺ- مرة واحدة في سورة [هود:2] ... السّبب - والله أعلم - أنّ قوم نوح لم يُؤمن منهم معه إلاّ قليل : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [مود:40] ، ولذلك فهم ليسوا أهلاً لأن يبشَّروا ، وبماذا يُبشَّرون ؟ أيبشّرون بالغرق أم بعذاب الآخرة ؟ إذن لا يصحّ معهم إلاّ الإنذار . أمّا قوم محمد-ﷺ- وإن امتنعوا عن إجابة دعوته أوّلا ،فقد عادوا إلى الاستجابة لها والدخول فيها بعد فتح مكّة المكرّمة ، ولذلك فهم أهل لأن يُبشّرهم مرّة واحدة مقابل إنذاره لهم (عشر) مرّات".[1]

وحسبنا هذه الأمثلة على علاقة التمكين لننتقل إلى النوع الثّاني من أنواع العلاقات التي تربط الفاصلة بما قبلها من الآية .

ثانيا- التوشيح:

" يُسمّى هذا النّوع بالتوشيح لأنّ الكلام نفسه يدلّ على آخره ، نزّل المعنى منزلة الوشاح ، ونزّل أوّل الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح ، اللّذين يجول عليهما الوشاح ، ولذا قيل فيه إنّ الفاصلة تُعلم قبل ذكرها ".[2]

ومن أمثلة هذا النّوع في سورة هود قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا

---

1) الإعجاز اللغوي ، عودة الله منيع القيسي ، ص27، 28.

2) البرهان ، 1/ 95.

بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود: 8]، فالمشركون كانوا يستعجلون بالعذاب هازئين بالوعيد ،بقولهم (ما يحبسه) فجاءت الفاصلة في نهاية الآية حاملة الدّلالةَ المعنوية التي تميّز بها التوشيح عن التصدير فمعنى ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ " وأحاط بهم العذاب الذي كانوا به يستعجلون . وإنّما وضع يستهزئون موضع يستعجلون ؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة الاستهزاء".[1]

ومن التوشيح قوله تعالى في قصص نوح -عليه السلام-:﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود:37] ، فقد دلّ الكلام في أوّل الآية – من خلال الأمر بإنشاء الفلك – على آخر الآية ؛ حتى إنّنا نتوقّع هذه الفاصلة قبل ورودها،خاصّة مع النّهي الوارد في أثناء الآية عن محاولة استدفاع العذاب بالشفاعة في الذين ظلموا؛وإذا بالفاصلة﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ تكاد تُعلم قبل ذكرها.

ومنه قوله تعالى في قصص صالح -عليه السلام- : ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: 63] . فإنّ ذكر الشّك في أثناء الآية قد دلّ دلالة معنوية على الفاصلة (مريب) . ومعنى(مريب) " من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النّفس وانتفاء الطّمأنينة باليقين".[2]

وقوله تعالى على لسان شعيب -عليه السلام- :﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود:92] تعبير معجز ترمي مهابته البلغاء بالبكم ! ، فقد وصف شعيب إعراض قومه ونسيانهم لربهم وصوّر غفلتهم عنه وتركهم له في صورة حسيّة ، وهي اتّخاذه وراءهم ظِهريًّا؛فجاءت الفاصلة بذلك التوشيح الرّائع:﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ . والإحاطة هي أنسب تعبير يُخاطَب به هؤلاء الظّانون بأنّهم في نجوة من علم الله وقدرته وبطشه.

وفي ختام السورة نقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ

1) الكشاف ، الزمخشري ، 2/ 381.
2) المرجع نفسه ، ص407.

﴿ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود:123]فنجد مثالا رائعا لإعجاز الفاصلة القرآنية في ارتباطها بما قبلها وائتلافها مع ما تقدّمها من الكلام ؛فإنّ المولى -ﷻ- حين ذكر في أوّل الآية استئثاره بعلم الغيب في السماوات والأرض ، وأنبأ أنّ مرجع الأمور ومصير كلّ شيء ومآبه إليه ، ثم أمر نبيّه ــ والمؤمنين من بعده ــ بالعبادة والتوكّل على الحيّ الذي لا يموت، وشحّ ذلك ينفي غفلته عن العمل الصادر منهم بما يتوافق وعلمه الغيب ورجوع الأمر كلّه إليه.

ثالثا- التّصدير:

هذا هو النوع الثالث من أنواع علاقة الفاصلة بما قبلها ، " وهو أن تكون لفظة الفاصلة بعينها تقدّمت في أوّل الآية ، ويُسمّى أيضًا (ردّ العَجُز على الصّدر) ".[1] وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام[2] :

1)- القسم الأول: أن تُوافق الفاصلة آخر كلمة في الصّدر؛ ومن أمثلة هذا النّوع قوله تعالى :﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: 35] ، فقد صدّرت لفظة (إجرامي) الواردة في آخر الآية للفاصلة (تُجرمون) .

ومثله قول الله -ﷻ-:﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود:98] ،فإنّ كلمة (أوردهم) التي تصدّرت آخر الآية ، دلّت دلالة لفظية على الفاصلة (المورود).

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾ [هود: 121] ؛ فإنّ لفظ (اعملوا) الوارد في آخر الصّدر وافق لفظ الفاصلة (عاملون).

2) ــ القسم الثاني: أن توافق الفاصلة أوّل كلمة في الآية ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ

---

1) الفاصلة في القرآن ، محمد الحسناوي ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط:2، 1421هـ ــ2000م ، ص 289.

2) انظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن ،جلال الدّين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق: علي محمد البجاوي ،دار الفكر العربي، د.ت. 1 / 48.

مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:18]، فالفاصلة (الظالمين) توافق كلمة(أظلم) في أوّل الآية .

ومنه قوله –ﷻ–: ﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود: 122] فكلمة (انتظروا) في أوّل الآية تتوافق والفاصلة (مُنتظرون).

3) ــ القسم الثالث: أن توافق الفاصلة بعض كلمات الآية ؛ ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [هود:5] فالفاصلة (الصدور) تتوافق مع كلمة(صدورهم) الواردة في أثناء الآية .

ومنه قول الحق –ﷻ–: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: 17] ، فكلمة (يؤمنون) في قوله تعالى:﴿ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ صدّرت للفاصلة (يؤمنون).

ومنه أيضا قوله تعالى في قصص نوح ــ عليه السلام ــ : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود:38] ، فقد تمّ التصدير للفاصلة (تسخرون) بثلاث كلمات :(سخروا، تسخروا ، نسخر)فجاءت الفاصلة بذلك قارّة في مكانها ، بديعة بما أولاها ذلك التصدير وأسبغ عليها من جمال ورونق.

رابعا– الإغال:

وهو من أنواع علاقة الفاصلة بما قبلها، حيث تنفرد هذه الفاصلة هنا بمعنى جديد . وسمّي بالإيغال " لأنّ المتكلم قد تجاوز المعنى الذي هو آخذ فيه ؛ وبلغ إلى زيادة على الحد يقال: أوغل في

الأرض الفلانية ، إذا بلغ منتهاها . فهكـــذا المتكلم إذا تمّ معناه ثم تعدّاه بزيادة فيه فقد أوغل."[1]

وثمـــة فواصل في القرآن الكريم " تحسبها النظرة السطحية زائدة عن المعنى ، وأنّها أُضيفت لأجل النّسق الموسيقي ، وقد لفت بعض المحدّثين الأنظار إلى مثل هذه الفواصل، وما تضيفه في النص، وحجم فاعليتها في التأثير". [2]

ومن أمثلة الإيغال في سورة هود قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [هود:23] ؛ فإنّ المعنى قد تمّ عند قولـــه تعـــالى " أولئك أصحاب الجنة" فانفردت الفاصلة " هم فيها خالدون" بمعنى جديد تعدّت إليه الآية، وهو إثبات الخلود لساكني الجنان.

ومنه قوله تعالى :﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود:40] فقد تم المعنى عند قوله – ﷻ- :" إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ " ؛ لكنّه أوغل فيه بزيادة معنى جديد أضافه للآية وهو الإعلام بقلّة المؤمنين الناجين مع نوح ـــ عليه السلام ـــ .

" وقـــد وردت في القرآن فواصل يُظن أنها زائدة . وفائدتها تكمن في إحكام الصورة الفنية وهـــذا ليس ببعيد عن معنى الإيغال... وهذه الفاصلة تقع من جهة الإعراب صفة للكلمة التي تكون قبـــلها ، فتعطيها إيغالا وزيادة تأثير."[3] من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود:58] فالفاصـــلة توحي بشدّة العذاب ، وتكمّل الصورة أمام البصر ، ولا تدع للنقص مجالا ، وتتناســـب مع السياق ؛ لأنّ المقصودين بوقوع العذاب ، والمُهلكين به قوم شداد ، عتوا عن أمر الله تعالى وعصوا المرسلين: ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ ﴾ [فصلت:15].

ومـــن روائـــع الإيغال في سورة هود قوله – ﷻ- :﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا

---

1) البرهان في علوم القرآن ، 1/ 96.

2) جماليات المفردة القرآنية ـ أحمد ياسوف ، ص321.

3) المرجع نفسه، ص322، 323.

تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:69 ، 70 ، 71] . فهذه ثلاث آيات تحتوي فواصلها على الإيغال ؛ الآية الأولى تقدِّم وصفا للعجل الذي أكرم به إبراهيم – عليه السلام – أضيافه وكلمة " حنيذ" زيادة على المعنى تمنح الكلام إيغالا وإيحاء بالكرم المفعمة به نفسُ الخليل – عليه السلام – .

والآية الثانية: ينتهي المعنى بطمأنة الملائكة لإبراهيم بعدما أوجس منهم خيفة: ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ ثم تُضفي الفاصلة معنا زائدا على المعنى الأول وهو بيان المهمّة التي جاء لأجلها الملائكة : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ . والآية الثالثة تزيد الفاصلة بها معنى إضافيا فالبشرى الأولى "بإسحاق" تشفع ببشرى ثانية تفصح عنها الفاصلة بطريق الإيغال :﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾

هذه هي الأنواع الأربعة التي تنحصر فيها الفواصل بحسب العلاقة أو ما سمّي بائتلاف الفواصل مع ما يدل عليه الكلام .

وأحسب – بعدُ – وإن لم تُحط هذه الدراسة بكل فواصل سورة هود ـــ فذلك ما يحتاج إلى دراسة إحصائية شاملة وبحث مستقل ـــ أنني وقفت على بعض مزايا هذه المفردات المشعّة بالحياة ، المشبعة بالإعجاز ، وجلوتُ طرَفا من مظاهر الإعجاز اللغوي في السورة الكريمة .

الفصل الثاني

الإعجاز في الأساليب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

أسلوب الجدل في سورة هود:

القـــرآن الكـــريم كتاب يهدي للتي هي أقوم ، جعله الله نورًا مبينًا للباحثين عن الحقيقة ، وسدًّا منيعًا أمام حملات الكفر المسعورة ، وقد سلك أوضح الطرق وأحسنها لبناء العقيدة الصحيحة وإنشاء الفكر السّليم ، واستعمل أرقى الأساليب لمواجهة الخصوم ومحاربة الضلالة والفساد ، والجدل أحد تلك الأساليب القرآنية التي أعجزت العرب وأفحمت المعاندين . فما هو الجدل؟ وما هي دواعي وجوده في القرآن ؟ وما هي خصائصه ومميّزاته المعجزة في سورة هود؟

المطلب الأول: مفهوم الجدل وأنواعه:

أولا- مفهوم الجدل:

جـــاء في لســـان العرب : " الجدل: اللّدد في الخصومة والقدرة عليها ، وقد جادله مجادلة وجـــدالاً ، ورجل جَدِلٌ ومِجْدَلٌ ومِجْدَالٌ : شديد الجدل ، ويقال : جادلتُ الرجل فجدلته جدلاً أي: غلبته".[1]

" والجدال : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، وأصله من جدلت الحبل أي: أحكمت فـــتله ...وجدلـــت البناء : أحكمته. ودرع مجدولة . والأجدل الصقر المحكم البنية ، والمجدل القصر الـــمحكم البناء ، ومنه الجدال ؛ فكأنّ المتجادلين يفتل كلّ واحد الآخر عن رأيه ، وقيل : الأصل في الجدال: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدَالَة وهي الأرض الصّلبة".[2]

وقد ورد لفظ الجدل في سورة هود في آيتين وذلك في قوله الحق: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[هود:32]،وقوله: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ

---

1) لسان العرب ، ابن منظور ،-دت- 1 / 571.

2) المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 503هـ) ، تحقيق وضبط: محمّد خليل عيتاني ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط:1 ، 1418هـ ـــ 1998م ، ص97.

إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود74-75]

ثانيا- أنواع الجدل:

الجـــدل مـــن طبائع الإنسان وهو مترع جبلّي فيه ؛ يهفو إليه حال المنازعة ويجنح إليه في صراعه الفكري مع الآخرين . إنّ الإنسان هو المخلوق الأكثر جدلاً من بين الكائنات الحيّة. قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف: 54]. ؛ فقد زوّدته القدرة الإلهية -إضافة إلى نوازعـــه الذاتـــية وميوله النفعية-بملكات إدراكية هائلة وطاقات ذهنية جبّارة اكتسب بواسطتها بـــراعة في تصريف القول وقدرة على الحجاج ، قد يستخدمها لإثبات الحق والدفاع عنه إن كانت نفسه توّاقة للخير ، وقد يستخدمها لنصرة الباطل إن كانت نفسه أمّارة بالسوء [1]. ومن هنا نعلم أنّ الجدل قد يكون محمودا مطلوبا ، وقد يكون مذموما مكروها ، " وإذا كانت غالب المقامات القرآنية التي ذكرت الجدل أفادتنا بعاهات المذموم منه ؛ حيث أبانت أنّه منسوب إلى من وُصفوا بكونهم من الجـــاحدين ، وأنّه كان لدحض الحقّ ، وأنّه كان خاليًا من المؤيّدات ، وأنّه كان يرتكز على أسباب غـــير موضـــوعية ، فإنّ بعضها الآخر تكفّل ببيان الجدل الذي يمكن وصفه بأنّه ممدوح ،وأنّه مفيد وهادف". [2]

ثالثا - الجدل القرآني وجه من وجوه الإعجاز:

اعتـــبر الجـــدل في القرآن " عند كثير من العلماء وجهًا من وجوه الإعجاز ، باعتباره من طرق القرآن البيانية ، ومن أساليبه في تقرير الحقائق العلمية وتوضيح المسائل الإعتقادية ". [3]

إنّ الجـــدل القـــرآني نمـــوذج فريد خالف طرق الحجاج والاستدلال التي سلكها الفلاسفة والمتكلّمون وسما عليها ، حتّى بهر العلماء وأعجز العالَمين ، " ويبدو أنّ الوجه المـــعجز في موضوع الجدل القرآني ... يتمثّل في وضوح الأدلّة وسهولة صياغتها وإيجاز ألفاظها ويُسر فهمها ، وفي بُعدها عن التعقيدات والجفاف "[4]. " فمن الناحية العقلية يبدو عرض القرآن للمنطق العقلي والحجج بسيطا

---

1) انظر: الجدل في القرآن الكريم : فعاليته في بناء العقلية الإسلامية ، د.محمد التومي ، شركة الشهاب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص 14.

2) المرجع نفسه ص25.

3) المرجع نفسه ص 165.

4) المرجع نفسه ، ص167.

قريب المأخذ لكلّ العقول بحيث لا يلتوي فهم هذه الحجج على عقل مهما يكن يسير الإدراك ما دام غير مختلّ أو مريض ، ولكن وراء هذه البساطة عمقًا أكبر ووراء قُرب المأخذ دقّة شديدة في التعبير والإشارات والتنسيق والترتيب المنطقي وفي الجوانب النفسية واسعة الآفاق وفي نواحٍ أخرى متعدّدة ".[1] قال السيوطي في الإتقان : " قال العلماء : اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلّة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كلّيات المعلومات العقلية والسمعية إلاّ وكتاب الله تعالى قد نطق به ، ولكن أورده الله تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلّمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قاله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾[إبراهيم:4] .

الثاني : أنّ المائل إلى دقيق المحاجّة هو العاجز عن إقامة الحجّة بالجليل من الكلام ؛ فإنّ من استطاع أن يُفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحطّ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلاّ الأقلّون ، ولم يكن ملغزًا . فأخرج تعالى مخاطباته في محاجّة خلقه في أجلّ صورة تشتمل على أدقّ دقيق لتفهم العامّة من جليلها ما يُقنعهم ، وتلزمهم الحجّة ، وتفهم الخواصّ من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء".[2]

المطلب الثاني: دواعي الجدل في القرآن خلال سورة هود:

لم يأت هذا الأسلوب في سورة هود اعتباطا ، بل كانت دواعي وأسباب وجوده قويّة ، وسنقف على كثيرٍ من مظاهر الإعجاز في جدل القرآن الذي أفحم الخصوم ، وأبان للجاحدين المنكرين أنّهم لا يقدرون على مجاراته ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ؛ من خلال تتبّع وعرض أهمّ هذه الدّواعي والأسباب :

أوّلا: مواجهة جدال المشركين وإبطاله:

كان العرب الذين بُعث فيهم محمّد -ﷺ- وأنزل الله إليهم القرآن قومًا أولي فصاحة وبلاغة، قد أوتوا حظًّا من قوّة اللّغة والبيان ، وكانوا يستخدمون تلك الملكة اللّغوية والبراعة البيانية في الحِجاج والجدل حال المنازعة والخصام ، قال الجاحظ (ت 255هـ) :" ذكر الله لنبيّه -عليه

1) المحاورة في القرآن ، د. عبد الحليم حفني ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ط:2 ، 1985م، ص66.

2) الإتقان في علوم القرآن ، 4/ 52.

السلام-جلل قريش في بلاغة المنطق ، ورجاحة الأحلام ، وصحّة العقول ، وذكر العرب وما فيها من الدّهـــاء والـــنّكراء والمكر ، ومن بلاغة الألسنة ، واللّدد عند الخصومة فقال تعالى :﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب:19]،وقال :﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم:97] ، وقال :﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة:204] ، وقال : ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[الزخرف:58] .[1]

ففـــي تلـــك البيـــئة اللّغوية والفكرية نزل القرآن الكريم حاملاً للعقيدة الراشدة والشريعة الخـــالدة، وهنالك احتدم الصراع الدّيني بين نبيّ يدعو إلى الحقّ ويدافع عنه تحت راية القرآن ، وبين قومـــه المتعلّقين بحبال الوهم وا لخرافة ، المجادلين في الحق بعدما تبيّن ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ [الكهف:56] . فكان الدّاعي إلى جدال الخصوم وإلزام المعاندين قويًّـــا، وكان لزامًا أن يتّخذ القرآن الكريم هذا الأسلوب وهذه الطريقة وسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل وإعلاء كلمة الله.

كبُرَ على المشركين ما يدعوهم إليه النبيّ -ﷺ- فاستنكفوا عن الإذعان للحقّ ، وراحوا في غمـــرة كبرهم وعنادهم يُلحدون في آيات الله ، ويجادلون بالباطل ليُدحضوا به الحق ، تدفعهم الرغبة الجامحة للقضاء على الدعوة الإسلامية المباركة ، فكان الجدل القرآني سيف الحقّ المصلت على رقاب البُغاة ، الذّائد عن حمى عقيدة التوحيد.

في ســـورة هـــود نجد مثالا حيًا للجدل القرآني في مواجهة جدال المشركين ، ونرى الجدل المشركي الخائب وهو يحاول إنكار الوحي والنبوّة المحمّدية ؛ إذ يزعم الكفّار أنّ القرآن لم يكن كلامًا الله بل هو من افتراء الرسول -ﷺ-على الرّغم من إدراكهم في قرارات أنفسهم أنه ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس:37] .

ويأتي القرآن الكريم لمناقشة هؤلاء الكافرين في هذا الموضوع ؛ فلا يدخل معهم في جدال

1) البيان والتبيين،عمرو بن بحر بن محبوب الكناني المعروف بالجاحظ ، تحقيق :عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ط:4 ، 1/ 8.

بيزنطي عقيم، بل يفجؤهم مباشرة بالحجّة الدّامغة والدّليل المبين: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[هود:13] .

" يُلاحظ أنّ القرآن في الجدل الذي يُلزم الخصوم ويُفحمهم ، يجيء إلى الإفحام من أقصر الطّرق وأقواها إلزاما...إنّ وسائل أخذ الخصم بأقرب طريق للإفحام والإلزام كثيرةمنها التّحدّي "[1]، وإذا تأمّلنا هذه الآية الكريمة استبان لنا طَرَف من إعجاز القرآن في مجادلة المشركين ؛ فإنّهم لّما زعموا أنّ القرآن مفترى تحدّاهم بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن مفتريات،قال صاحب (التحرير والتنوير) : " ومعنى (مفتريات) أنّها مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن أي بمثل قصص أهل الجاهلية وتكاذيبهم . وهذا من إرخاء العنان والتّسليم الجدلي".[2]

ويـنطلق الجدل القرآني في عملية غزو الوعي واللاّوعي لدى خصومه عن طريق استفزازهم وتقريعهم ؛ فيدعوهم إلى الاستعانة بمن استطاعوا وهذه النهاية في التّحدّي والتقريع .

لا جـوابَ أنسبَ وأليقَ بمردة الكفر وأئمّة الطغيان من هذا التّحدّي الصارخ القاطع ، فإذا كـان الافتراء يأتي بهذا القرآن لماذا لا يفترون مثله لتنهض حُجَّتهم ، وإذا ظهر بعد هذا كلّه عجزهم عـن الإتيان بعشر سور مثله مع تمكّنهم من الاستعانة بكلّ من عدا الله تبيّن أنّ هذا القرآن وحي من لدنـه سـبحانه.ولذلك عقّب المولى –ﷻ–على هذا التحدّي بقوله : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود:14] .

ثانيًا: نقد القديم ونقض الخرافة:

عـاش العـرب قـبل ظهور الإسلام في بيئة جاهليّة استحكمت فيها العادات وتقدّست الموروثات،واعتُـبر الخـروج عـن العرف السائد ضلالاً مبينًا ، فلمّا نزل القرآن الكريم حارب هذا الانحراف الخطير في العقيدة والسّلوك ، وقام بثورة شاملة على التقاليد البالية والمعتقدات الفاسدة التي أرهقت عقل الإنسان وهمّشت فكره ورمت به في ظلمات الوهم والخرافة ، ولم يكن تقبّل هذا التغيير

1) المعجزة الكبرى ، محمد أبو زهرة ،دار الفكر العربي–دت– ص 352 .

2) التحرير والتنوير ، 12 / 20 .

الجـــذري بالسّـــهل الممكن لدى أناس طغى عليهم سلطان العادة ، فرفض أكثرهم الانصياع لدعوة الحـــقّ، وتعصّـــبَ لرأيه الفاسد في اعتناق دين الآباء والأجداد، فكان ذلك داعيًا لاحتدام الجدل بين القرآن والذين استحبّوا الكفر على الإيمان . ومن أهمّ المواضيع التي ناقشتها سورة هود في هذا المجال :

1- نقد العقيدة السائدة وبيان انحرافها :

سورة هود من السور المكيّة التي تهتمّ بأصول العقيدة " والعهد المكّي هو عهد بيان الاختلال الكامن في ذات الاعتقاد السائد لتقع الإطاحة بالشرك فيخرج مذمومًا مدحورًا ، ولا يمكن أن تكون الإطاحة سليمة وشرعية إلاّ إذا كانت معضّدة بمبرّرات واقعيّة ، ومدعّمة بمؤيّدات منطقيّة ، ومرتكزة على أدلّة عقلية ".[1]

وقـــد بـــيّن المولى -ﷻ- لنبيّه الخلل المتمثل في الأساس الهش الذي بُنيت عليه عقيدة عبدة الأوثـــان؛ الذين اتّخذوا من دون الله آلهة اتّبعوا في عبادتها آباءهم من غير إعمال فكر أو تأمّل عقل ، فجـــاء الجـــدل القرآني ليبيّن فساد هذا الاعتقاد وبطلانه ، ويكشف انحرافه ومخالفته للفطرة والمنطق العقلي ، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ [هود:109]فالله -ﷻ- ينهى عن الشّك في فساد وبطـــلان عقـــيدة الكفّـــار لأنّها عقيدة متوارثة عن آبائهم وأسلافهم ؛ وقد تحقّق بطلانها وما حلّ بأصحابها من النّكال والعذاب ، " والآية في ظاهرها خطاب للنبيّ -ﷺ- وفي حقيقتها خطاب للأمّة ، وكأنّها تقول : لا تشكّوا يا معشر المسلمين ، في ضلال هؤلاء المشركين وفساد دينهم ، فهم يتّبعون آبـــاءهم تقليدًا ، من غير حجّة ولا برهان ، يقلّدونهم على العماية ، من غير بصيرة ولا تفكير ".[2] قـــال صـــاحب الظلال في تفسير هذه الآية : " فلا يتسرّب إلى نفسك شكّ في فساد عبادة هؤلاء . والخطاب للرسول -ﷺ- والتّحذير لقومه . وهذا الأسلوب أفعل في النّفس أحيانًا ، لأنّه يوحي بأنّها قضـــيّة موضوعية بيّنها الله لرسوله ، وليست جدالاً مع أحد ، و لا خطابًا للمتلبّسين بها ، إهمالاً لهم وقلّة انشغال بهم ! وعندئذ يكون لتلك الحقيقة الخالصة المجرّدة أثرها في اهتمامهم أكثر مما لو خوطبوا بها خطابًا مباشرًا ".[3]

1) الجدل في القرآن الكريم ، محمد التومي ، ص94 .
2) قبس من نور القرآن الكريم ، الصابوني ، 5 / 85 .
3) في ظلال القرآن ، 4 / 1930.

ونقض العقائد الفاسدة المبنية على التقليد في شتّى العصور هو ديدن القرآن ، ولذلك اتّخذ من التاريخ ومن قصص الغابرين مادّة جدليّة يردّ بها مزاعم المبطلين . إنّ دين الأنبياء واحد ودعوتهم واحـــدة ، وقد تشابهت مواقف أقوامهم من هذا الدّين وتلك الدعوة مع موقف المشركين في مكّة ، فأصبح الرّدّ على أولئك ونقض عقائدهم ردّا ونقضًا لعقائد هؤلاء وهذا ما قام به القرآن الكريم.

في سورة هود نجد الجدل يحتدم بين هود- عليه السلام- وقومه بعد أن دعاهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأوثان : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود:50] ، فقد أخبرهم هود أنّ الله هو ربّهم الحقّ وأنّه مالهم من إله ، غيره وأنّ ما هم عليه من الشرك محض افتراء ، ولكن القوم كان قد استشرى فيهم الكفر وتفاقم ؛ حـــتّى اعتقدوا أنّ هودًا قد أصابه انتقام آلهتهم فأصبح يهرف بما لا يعرف : ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود:53-54].

فقد ظهرت في كلامهم هذا آثار فساد عقيدتهم ، وتهافت حجّتهم ، " فلا شكّ أنّهم يعنون أنّ آلهـــتهم أصابته بمسّ من قبل أن يقوم بدعوة رفض عبادتها لسبب آخر ، وهو كلام غير جارٍ على انتظام الحجّة ، لأنّه كلام ملفّق من نوع ما يصدر عن السوفسطائيين ، فجعلوه مجنونًا وجعلوا سبب جنونه مسّا من آلهتهم ، ولم يتفطّنوا إلى دَخَل كلامهم وهو أنّ الآلهة كيف تكون سببا في إثارة ثائر عليها ".[1] وهنا يجيء الرّدّ القرآني الحاسم — على لسان هود عليه السلام — آخذًا شكل التّحدّي ، ليبيّن لهؤلاء الكفّار وأولئك أنّهم ليسوا على شيء وأنّ آلهتهم لا تنفع ولا تضر: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود:54-55-56] ، فأجابهم بأنّه يُشهد الله عليهم أنّه بلّغهم وأنّهم كابروا وجحدوا آياته ، ثمّ حمّلهم شهادة له بأنّه بريء من شركائهم ، ولمّا كانت البراءة من الشركاء تقتضي اعتقاد عجزها عن إلحاق إضرار به أمر قومه بأن يكيدوه ، وأدخل في ضمير الكائدين أصنامهم مجاراة لاعتقادهم واستقصاء

---

1) التحرير والتنوير ، 12 / 98 .

لتعجيزهم ، وهذا إبطال لقولهم : "إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء " ، ثمّ ارتقى في رتبة التعجيز والاحتقار فنهاهم عن التأخير بكيدهم إياه ، وذلك نهاية الاستخفاف بهم وبأصنامهم وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك .[1]

وفي قصّة صالح –عليه السلام –يتكرّر الموقف ذاته فتتشابه الردود : إنّ ثمودَ التي شيبت عقيدتها بأدران الوثنية العفنة لم يكن لديها من دليل على الإشراك إلاّ اتّباع دين الآباء، اعتقادَ كماله وصحّته، فاستنكروا دعوة صالح عليه السلام إلى الإسلام والتوحيد : ﴿ قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود:62]، فكان الردّ القرآني المفحم على لسان صالح –عليه السلام- : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [هود:63-64] ، فالمعجزة التي أيّد بها الرسول هي دليل صدق دعواه في بطلان عقيدة قومه وتهافتها .

وهكذا تتنوّع طرق القرآن في نقد العقائد الضالّة المنحرفة ، وتتنوّع سُبُل نقضه لها وبيانه لانحرافها ، ليتبيّن لمشركي مكّة ضلالهم وفساد عقيدتهم التي هي من وحي آبائهم وأسلافهم ، فيكون ذلك داعيًا لهم إلى إعادة النّظر في دينهم ، وباعثًا لهم على التفكير في اتّباع دين وعقيدة الإسلام.

2- مناقشة منكري البعث:

من أخطر ما أصاب عقيدة العرب من لوثات الشرك إنكارهم للبعث ، وكفرهم بوجود يوم الحساب الذي يُرجعون فيه إلى الله لتُوفّى كلّ نفس منهم ما كسبت ، ﴿ وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾ [الجاثية:24] ، وقد تكفّل القرآن ببيان هذا الانحراف، فناقش أصحابه وجادلهم ، وأقام الحجج على بطلان إنكارهم ، وكان ذلك من أهمّ دواعي وجود الجدل في القرآن .

في سورة هود نرى الجدل الشركي الممقوت يرفض الإيمان باليوم الآخر ، مشكّكًا في إمكانية البعث بعد الموت؛مستعجزًا القدرة الإلهية،مستعجلا العذاب في تهكّم ساخر : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا

---

1) المرجع السابق، ص 99 - 100 .

عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ [هود:8] ، فهؤلاء الجاحدون ينكرون البعث دون أن تقوم لديهم حجّة أو أثارة من علم يستندون إليها،معتبرين إخبار النبيّ -ﷺ- لهم بأن لهم موعدًا مع الحشر والحساب سحرًا مبينًا ، " ووجه جعلهم هذا القول سحرًا أنّ في معتقداتهم وخرافاتهم أنّ من وسائل السحر الأقوال المستحيلة والتكاذيب البهتانية ، والمعنى أنّهم يكذّبون بالبعث كلّما أُخبروا به لا يتردّدون في عدم إمكان حصوله بَلْهَ إيمانهم به ".[1]

فههنا صورة تفضح جدالهم بالباطل ، وعنادهم وصلفهم وتهكّمهم بالدعوة الإسلامية " فإذا أخبرهم الرسول -ﷺ- بالبعث وأنّ شركهم سبب لتعذيبهم جعلوا كلامه سحرًا ، وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه ، فإذا تأخّر إلى أجلٍ اقتضته الحكمة الربانية استفهموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تهكّم ظنًّا أنّ تأخّره عجز".[2]

وأمام هذا الجدل العبثي المتعنّت المتعصّب المُقام على أساس الوهم والظنون ؛يأتي الجدل القرآني المعجز ، الحقيق بالحجيّة والاقتدار.

إنّ الآية الكريمة -وهي تحمل الردّ الحاسم على أباطيل الكفار- جاءت بتعبير معجز عجيب؛ فعند عرض مقالة الذين كفروا نجد تلك الجملة المؤكّدة باللام الموطّئة للقسم ونون التوكيد :(لَيَقُولَنَّ) و ذلك " لتنزيل السامع منزلة المتردّد في صدور هذا القول منهم لغرابة صدوره من العاقل ، فيكون التأكيد القويّ والتنزيل مستعملاً في لازم معناه وهو التعجيب من حال الذين كفروا أن يحيلوا إعادة الخلق وقد شاهدوا آثار بدء الخلق وهو أعظم وأبدع".[1] ففي هذا التعبير ردّ على استعجازهم القدرةَ الإلهية ، وأمّا الردّ المبين على استعجالهم العذاب تهكّمًا ففي قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود:8] حيث إنّه لمّا سرى في خَلَد الكفّار أنّ العذاب غير ممكن الوقوع بدليل احتباسه؛ بيّن المولى -ﷻ-لهم أنّ العذاب ليس مصروفًا ولكنّه مؤخّر . وممّا يشهد بإعجاز الجدل القرآني وتفرّده تلك اللّمحة السريعة الخاطفة التي انتقل فيها التعبير القرآني من محاورة العقل إلى مخاطبة النّفس ومحاولة لمس الوجدان من خلال التهديد والتخويف: فافتتاح الكلام بحرف التنبيه (ألا) للاهتمام بالخبر لتحقيقه ومن ثمّ تخويف المخاطَبين وإدخال الروع في ضمائرهم ، ثمّ تقديم الظرف (يوم) للإيماء بأنّ إتيان العذاب لا شكّ فيه حتّى أنّه يُوقّت بوقت ، ثمّ

---

1) المرجع السابق ، 12/ 9.

2) المرجع نفسه ، الصفحة ذاتها .

بيان أنّ استهزاءهم كان سبب إحاطة العذاب بهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) .

ثالثًا: بناء المفاهيم الصحيحة:

لم يكن هدف القرآن الكريم مقتصرًا على زعزعة العقائد الفاسدة وإبطالها ، بل كان يهدف بعد ذلك الهدم إلى بناء المفاهيم الصحيحة للوجود ، وتوجيه البشر نحو الخير والصلاح . ومن أهمّ المفاهيم التي جادل القرآن خصومه لإقامتها :

1- بناء عقيدة التوحيد:

دعا القرآن الكريم إلى نبذ الشرك والوثنية القائمة على الخرافة والجهل ، وقدّم لخصومه البديل الأليق المبني على الحقّ واليقين ، إنّه التوحيد وإفراد الله -ﷻ- بالعبودية ، ولقد وُجه بناء هذه العقيدة بمعاول الكفر تحاول هدمها ، وما كان الجدل القرآني إلاّ الصخرة التي تفلّ حدّ هذه المعاول وتُحبط مؤامرتها .

جُلُّ المناظرات التي جرت بين الرّسل والملإ الذين كفروا من أقوامهم ؛ كانت هذه القضيّة فيها محور النّقاش والجدل ، وقد عرض القرآن الكريم هذه المناظرات لتكون سلاحًا في وجه الجدل الشركي الذي يمارسه أعداء القرآن . ولتكون موردًا يستلهم منه خاتم النبيين ما يواجه به قومه وما يغرس به بذرة العقيدة الحقّة في نفوسهم ، ومن أمثلة ذلك مجادلة نوح – عليه السلام- قومه ودعوتهم إلى التوحيد :

تبدأ المناظرة من عرض النبيّ لدعوته: قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود:25-26] . هذا هو موضوع الدّعوة ، وهو موضوع " محدّد وفي غاية الإيجاز والوضوح والتميّز عن غيره،وهو قوله :(ألاّ تعبدوا إلاّ الله) فوحدانية الله إذن هي كلّ القضيّة التي يدور حولها الصراع بين نوح وقومه " . [1] وبالنّظر في الآية الكريمة نجد القرآن الكريم يقدّم نموذجًا فريدًا لعرض الفكرة حتى يتهيّأ لها القبول في النّفوس ؛ فقد مهّد نوح –عليه السلام- لموضوع الدّعوة بإنذاره لقومه :(إنّي لكم

---

1) أسلوب المحاورة في القرآن ، عبد الحليم حفني ، ص 69.

نذيـــر مـــبين) وهو تمهيد اتّخذ طابعًا عنيفًا لإثارة السامعين وجلب اهتمامهم ، ثم جاء مباشرة إلى صـــلب الموضوع :(ألاّ تعبدوا إلاّ الله) بألفاظ بسيطة واضحة مفهومة ، وتعبير محدّد لا يتيح للذّهن ابتعادًا عن المعنى أو تأويلا له ، ثمّ عقّب على ذلك بالتخويف والتهديد ؛ ليُنذرهم سوء عاقبة العصيان والتمرّد :(إنّي أخاف عليكم عذاب يوم أليم) .[1]

وفي قصّـــة هـــود-عليه السلام- يدور الجدل حول القضيّة ذاتها ، ويجادل هود قومه لبناء عقيدة التوحيد :﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [هود: 50] ، والكلمة نفسها يقولها صالح-عليه السلام-:﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[هود:61]ويجادله قومه في ما يدعوهـــم إليه:﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود:62] فيقطع صالح ريبتهم بأن يقدّم الحجّة القاهرة على صدقه:﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [هود: 63-64]. وهي القضيّة التي بدأ الجدل بين شعيب وقومه حولها : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [هود:84] .

ونجـــد الله -ﷻ-يوجّـــه محمّدًا -ﷺ- إلى الاهتمام ببناء عقيدة التوحيد ؛ باستعمال أسلوبي الإنذار والتبشير : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود:2] مستدلاً على ذلك بكمال صفاته العُلى من قدرة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [هود:4] ومن علم﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [هود:5].ومن تفرّد بالخلق والرزق وغيره.

2- بناء عقيدة الإيمان بالبعث:

من المفاهيم التي جادل القرآن خصومه لبنائها الإيمان باليوم الآخر ، وقد قرّر القرآن هذه

---

1) أنظر: المرجع السابق ، ص 70.

الحقيقة في بداية السورة ، قال تعالى :﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [هود3-4] .

ولمّا كان القرآن في مواجهة منكرين للبعث ومشككين في قدرة الله عليه ؛قدّم القرآن لهم الحجّة الناصعة على يقينيّة حدوثه:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود:7] ، فقد أثبت المولى-سبحانه- البعث هنا عن طريق الاستدلال بخلق السماوات والأرض ...وقياس الإعادة على خلق السماوات والأرض من ضروب استدلال القرآن على المعاد الأخروي[1]، قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[يس:81]، " ثمّ انتهج طريقة أخرى في الاستدلال وهي طريقة العلّة والمعلول فقال:﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[هود:7] .

ويقدّم الله –عزّ وجلّ–أدلّة أخرى من التاريخ ، ومن قصص الأولين ، ليبيّن لمنكري البعث أنّهم ليسوا أوّل كافر به ، وأنّ محمّد – ﷺ– ما كان مبتدعًا في الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ، فقد سبقه إلى ذلك إخوانه المرسلون . فنوح –عليه السلام وهو أول الرسل– سعى إلى بناء هذه العقيدة في نفوس قومه :﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود:34] .

كما أنّ العذاب الذي حلّ بالطغاة المكذبين على مرّ العصور حقيق بالتفكّر ؛ فهو دليل على عذاب الآخرة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود:102-103-104] .

رابعًا: دحض الشبهات:

كثيرًا ما تواجه دعوة الحقّ شبهًا يلقيها أصحاب الباطل في محاولة لإطفاء وهج الحقيقة ، ولذلك كان الجدل القرآني متراسًا للدّعوة الإسلامية ؛ يحمي ذمارها ويدفع عنها شبه المبطلين وكيد

---

1) انظر: الإتقان في علوم القرآن ، 4/ 53، 54 .

المعـــتدين وانتقاص الجاهلين ، وفي سورة هود نقف على بعض تلك الشبهات التي زعم أصحابها أنها المانع من اعتناق الدين الذي جاء به محمّد -ﷺ-قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود:12] ، ونلاحظ أنّ ردّ هذه الشبه جاء مجملا ليفصّل في موضع آخر عند عرض مجادلة نوح قومه : فبعدما بيّن نوح –عليه السلام – موضوع دعوته واجهه الملأ من قومه بردٍّ بائس كان أشبه شيء بما ووجه به محمّد -ﷺ- من وجهاء قومه : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:27] . إنّ أخطر ما في هذا الرّد هو تحاشي الخصوم (الملأ من قوم نوح) وتجنّبهم المناقشة في موضوع الرسالة مع أنّه هو القضية ؛ فلم يجادلوا في تصديقهم بوحدانية الله أو عدم تصديقهم وإنّما عمدوا إلى الأساس الذي قامت عليه القضيّة وهو رسالة نوح من عند الله ؛ فحاولوا جداله فيه ، وهم إن أقاموا الحجّة على انتفاء نبوّة نوح ورسالته فلن يُقبل منه أيّ كلام آخر في الموضوع ، وقد أوردوا في ذلك ثلاث حُجج كانت أشبه شيء بما استدلّ به كفّار مكّة لإبطال نبوّة محمد -ﷺ- :

- **الحجّة الأولى:** إنّ نوحًا لم يكن إلاّ بشرًا مثلهم ، فلا يصحّ كونه رسولا ، لأنّ الرسول ينبغي أن يكون متميّزًا ، وينبني على هذا المنطق أنّه إن كانت هناك رسالة فهم أولى بها لأنّهم يمتازون بالسّيادة.

- **الحجّة الثانية:** إنّ الذين قبلوا دعوته ليسوا من النبلاء والأشراف بل هم من الأراذل وانتماء هذه الطبقة إلى دعوة نوح دليل على عدم صحّتها .

- **الحجّة الثالثة:** ليس لنوح –عليه السلام– ومن آمن معه امتياز من مال أو جاه أو سلطان أو شيء يفضلون به السادة الذين رفضوا الدعوة ، فكيف يتنازلون عمّا هم فيه من مكانة وهيبة وفضل ويتساوون مع نوح وأتباعه ؟ (1)

وأمام هذا الجواب المبني على الجهل والتعصّب جاء ردّ نوح : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ

---

1) أنظر : الجدل في القرآن الكريم ، ص 63،64.

مِن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. [هود :28...31].

إنّ أوّل مـا قـام بـه نوح –عليه السلام– هو التنبيه على جوهر القضيّة التي تحاشى الملأ مناقشتها معـه : فأنبأهم بأنّه على يقين ناصع من ربّه في ما يدعوهم إليه ، وهو لا يُكرههم على الإيمان بما جاء به،كما أنّه لا يبتغي من وراء اتّباعهم له إغناءه بمال أو تمكينه من سلطة وزعامة . وفي هـذا الـرّد بـرهان على عظمة رسالته وصدقها . ثمّ انتقل إلى إبطال حججهم لكي يُلزمهم صدق دعـواه؛ فأقرّ لهم بمقدّمة الحجّة الأولى وهي أنّه بشر مثلهم ، فهو لا يدّعي الملائكيّة ولا يملك خزائن الله ولا يدّعـي معـرفة الغيب ، بيد أنّ انتفاء هذه الأوصاف عنه لا تمنع اجتباء الله له وأن يُؤتيه منه رحمة ويُوليه تكريمًا بالرسالة ، كما أنّ هذه الرّسالة لا تنتفي عنه بسبب عمى بصائر الآخرين عنها . ثمّ أبـان لهـم–ردًّا على الحجّة الثانية– أنّه من غير المعقول أن يطرد المستضعفين المؤمنين من رحاب الإسلام ، فما هو إلاّ نذير مبين لا يمكنه التدخّل في هذا الشأن الإلهي باختيار من يؤمن ومن لا يؤمن. ثمّ ردّ عـلى حجّـتهم الأخيرة أنّ مقياس الفضل لا يتحدّد بما تراه أعينهم من الجاه والسطوة ، وإنما الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وهو أعلم بما في نفوس الناس ومن يستحقّ هذا الخير .

مـن حـقّ نوح الآن أن يُلزم خصومَه دعواه أنّه رسول من عند الله، ويترتب على هذا التزامهم ما يدعوهـم إليه،وهو وحدانية الله،لأنّ المحاورة انتهت بردّ نوح على حجج قومه ردًّا مقنعًا،لكن الهزيمة التي أفقدتهم صوابهم جعلتهم يرمون المنتصر ببعض صفاتهم فوصفوه بأنّه كثير الجدال : ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود:32].

ولكن نوحًا الذي كان على بيّنة من ربّه لا يُزعجه خروجهم عن إطار المحاورة إلى الجدل العقيم ، بل يخبرهم في سكينة المؤمن الصادق أنّ ما يطلبونه من إيقاع العذاب إن هو إلاّ بمشيئة الله :﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: 33-34] ، وهنا تتبدّى إحدى

روائـــع الإعجاز في الأسلوب الجدلي للقرآن ؛فنجد الرّفق بالمهزوم والحرص على استنقاذه من براثن الخطايـــا غاية سامية ومطلبا نبيلا ، فرغم ذلك التكبّر والعناد من قومه إلاّ أنّ نوحًا يعاوده الحنين إلى اســـتمالة قومـــه لحرصه على إيمانهم فيذكّرهم بأنّه ناصح لهم،وإن كان قد يئس من صلته بهم فهو لم ييأس من صلتهم بالله ، فراح يذكّرهم بأنّ الله ربّهم وأنّهم إليه راجعون . (1)

بعـــد هذه العرض لأهمّ دواعي وأسباب وجود الجدل القرآني نخلص إلى القول بأنّ أسلوب الجدل هو أحد الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في كبت خصومه ومعارضيه ، ومحاولة حملهم عـــلى الإذعان لدعوته وتعاليمه . وقد تسنّى لنا الوقوف على مظاهر لإعجاز هذا الأسلوب في سورة هود ؛ التي كانت ركنًا شديدًا آوى إليه النبيّ -ﷺ- في تلك المرحلة العصيبة من الدعوة .

1) انظر: أسلوب المحاورة في القرآن ، عبد الحليم حفني ، ص 82 ، 83 ؛ 84

المبحث الثاني:

أسلوب القصة في سورة هود :

ذكر العلماء من وجوه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن الغيوب الماضية ، من قصص الأمم البائدة ، وأنباء الأنبياء والمرسلين ؛ التي لم يكن يعلمها محمد-ﷺ- ولا قومه من قبل أن يترّل القرآن . قال الباقلاّني : " والوجه الآخر ما عليه القرآن من قصص الأوّلين ، وسِيَر الماضين ، وذكر ما شجر بينهم ، وكان في أعصارهم مما لا يجوز حصول علمه إلاّ لمن كثر لقاؤه لأهل السِيَر ودرسه لها وعنايته بها ومُجالسته لأهلها ، وكان ممن يتلو الكتب ويستخرجها ، مع العلم أنّ النبيّ-ﷺ- لم يكن يتلو كتابا ولا يخطّه بيمينه ، وأنّه لم يكن ممن يُعرف بدراسة الكتب ومجالسة أهل السير والأخذ عنهم ولا لقي إلاّ من لقوه ، ولا عرف إلاّ من عرفوه ، وأنّهم يعرفون دأبه وديدنه ، ومنشأه وتصرّفه في حال إقامته بينهم ... فدلّ ذلك على أنّ المُخبِر له عن هذه الأمور هو الله-سبحانه- علاّم الغيوب ، فهذا وجه الإعجاز في القرآن ".[1]

والقصص القرآني معجز من ناحيتي المضمون والشّكل ؛ فمن جانب المضمون يُعتبر الإخبار بالغيب الصّادق معجزة باهرة ، ومن الجانب الشكلي فإنّ مجيء هذا القصص في قالب لغوي بديع لا قِبَل للبشر به ؛ ضمن بيانه قرائح البلغاء ، وأعجز ببلاغته الخطباء والشعراء ، لمّا يشهد بإعجاز القرآن وسموّه.

وقد امتنّ الله -ﷻ- على رسوله الكريم بقوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف :3] ، فالقصص القرآني مفضّل على جنس القصص كلّه بما تضمّن من آيات الإعجاز . ولا ريب أنّ معرفة الإعجاز في الأسلوب القصصي القرآني يتمّ عن طريق الوقوف على مظاهر هذا الإعجاز ، ولعل استكشاف هذه المظاهر في سورة هود يتطلّب الإجابة على الأسئلة الآتية: إلى أيّ نوع من أنواع القصة تنتمي قصص سورة هود ؟ وما هي أغراضها وأهدافها ؟ وما هي خصائصها الفنيّة ؟

---

1) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، للباقلاّني ، ص 186، 187.

المطلب الأول : أنواع القصّة القرآنية في سورة هود :

ذكر الدّارسون أنّ في القرآن الكريم عدة أنواع من القصص ، ففيه من ناحية البناء الموضوعي القصّة التاريخيّة والقصّة الواقعية والقصّة التمثيليّة ، وفيه من ناحية العرض وأسلوب الأداء القصّة الطويلة والقصّة القصيرة وقصّة المشاهد والحوار. وقد جمعت هذه الألوان بين الخصائص الفنيّة وبين تحقيق الغرض الذي سيقت القصّة من أجله ، بل إنّ الخصائص الفنيّة خاضعة خضوعا كاملا ومطوّعة تمامًا لتحقيق هدف القصّة-كما سيأتي بيانه-. (1)

لقد قصّ الله على نبيّه-في سورة هود- ستّ قصص من تاريخ النبوّة والرّسالات - مفصّلة بعض الشيء - ، اتّبعت خطّ سَير التاريخ فجاءت مرتّبة في السورة حسب ورودها التاريخي ؛ بداية بقصّة نوح ، ثمّ هود ، ثمّ ، صالح ، ثمّ إبراهيم ، ثمّ لوط ، ثمّ إشارة مقتضبة لموسى . وهذا الترتيب مقصود لأنّه يذكّر التّالين بمصير السالفين على التوالي. (2)

فمن ناحية البناء الموضوعي تندرج قصص السورة ضمن القصّة التاريخية ؛ بما أوردت من أخبار الأمم البائدة وأنباء الماضي السحيق ، " والتاريخ في قصص القرآن ليس غاية لذاته إنّما هو مصدر للوقائع والأحداث والأشخاص والعبر ، يُؤخذ منه بالقدر الذي يفي بتحقيق هدف القصّة ، ومن الزاوية التي تتّفق مع ذلك الهدف . ومن هنا نرى كثيرًا من القصص قد أغفل مقوّمات التاريخ من زمان ومكان وشخوص . وسواء أجاءت القصّة بمقوّمات التاريخ أم جاءت غُفلاً منها فهي قصّة تاريخية مستمدّة من صميم الواقع التاريخي وليست لونًا من الأساطير ولا ضربًا من الخيال ". (3)

ومن ناحية العرض وأسلوب الأداء تتوزّع قصص السورة بين القصّة القصيرة والمتوسّطة الطول وقصّة المشاهد والحوار ؛ حيث يمكن اعتبار قصص صالح و إبراهيم ولوط وموسى من جنس القصّة القصيرة،"والأقصوصة أو القصّة القصيرة هي التي تتناول قطاعاصغيرامن الحياة،أوحادثا كبيرا من أحداثها ؛فتعرض في صورة سريعة قويّة تعبيرات مركّزة مشعّة ،ومهمّتها الإيحاء السريع والتأثير القويّ لتبلغ غايتها في أقصر وقت ومن أقرب طريق". (4) وقد وردت قصة صالح في ثماني آيات : [61-68] ،

---

1) أنظر : منهج القصّة في القرآن، محمد شديد ،شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية، ط:1 ، 1404هـ - 1984م ، ص 35 .

2) انظر : في ظلال القرآن ، 4/ 1870 .

3) منهج القصة في القرآن ، ص35 .

4) المرجع نفسه ، ص 42 .

وتداخلت قصّة لوط مع قصّة إبراهيم والآيات التي ذكرت قصّتيهما معًا أربع عشرة آية:[69-83] ، والآيات التي تحدّثت عن قصّة لوط مع الملائكة ومع قومه سبع آيات:[77-83] ، ووردت الإشارة إلى قصّة موسى وفرعون في أربع آيات:[96-99]. ومن هذا النوع أيضا قصّة هود التي سمّيت السورة باسمه فقد ذُكرت في إحدى عشرة آية : [50-60]،وقصّة شعيب التي وردت في اثنتي عشرة آية :[84-95] . " فهذه القصص مع تكرارها قصيرة لأنّها تعرض عند حلقة الرسالة وحدها فتتضمّن الرسالة والحوار مع [القوم الكافرين] ، وتكذيب هؤلاء القوم ثمّ إهلاكهم جميعًا".(1)

وهناك قصص متوسّطة الطول كقصّة نوح(2) ؛ التي ذُكرت بشيء من التفصيل في خمس وعشرين آية :[25-49] ، " فلقد فصّلت لنا السورة الكريمة الشّبهات التي جابهه بها قومه ،كما فصّلت لنا الرّدّ على هذه الشبهات واحدة واحدة ، ثمّ حكت لنا هذا الحوار الذي انتهى بوحي الله لنوح أنّه لن يُؤمن من قومه إلاّ من قد آمن ، ثمّ حكت لنا السورة شيئا آخر يتعلّق بصناعة الفلك ، وما كان من سخرية قومه منه ، ثمّ أعطتنا وصفًا دقيقا مؤثّرا لحركة السفينة وهي تجري بهم في موج كالجبال .. وأخيرا حدّثتنا القصّة عن أمرين ذوي خطر؛ أوّلهما : ما حدث بين نوح وابنه .وثانيهما : ما كان من سؤال نوح لربه تبارك وتعالى وما أجابه به ربه ..." .(3)

وكلّ قصص هذه السورة هي قصص حوار ومشاهد -باستثناء قصّة موسى- ، وقصّة المشاهد والحوار هي تلك التي " تعتمد في طريقة العرض على المشاهد ، وفي طريقة التعبير على الحوار وفي تنسيق الحوادث على أبرز المواقف ؛ تاركة بين المشاهد كثيرا من التفصيلات التي تعمل فيها الذّاكرة أو يتصوّرها الخيال ؛ وقدرة القرآن الكريم على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر وبراعته في العرض والأداء ، وإعجازه في التعبير المركّز القصير المشعّ بالإيحاءات ؛ تبعث الحياة في هذا اللّون من القصص وتُحوّله إلى صور حيّة وشخوص متحرّكة ومشاهد تنبض بالحياة ".(4)

المطلب الثاني : أغراض القصّة القرآنية في سورة هود :

استخدم القرآن الكريم أساليبه المعجزة في العرض والأداء والتعبير لتحقيق أغراض نبيلة ، ها

1) انظر : التصوير الفني في القرآن ، ص 137 .
2) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
3) القصص القرآني : إيحاؤه ونفحاته ، فضل حسن عباس ، شركة الشهاب ، الجزائر ، ص 73 .
4) منهج القصّة في القرآن ، ص 44 .

أهميّتها في الكون والحياة ، وما أسلوب القصّة القرآنية إلا أداة هُيِّئت لخدمة أهداف القرآن الأصيلة ، ولذلك فهي " ليست عملاً فنيًّا مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه –كما هو الشأن في القصّة الفنيّة الحرّة ؛ التي ترمي إلى أداء غرض فنيٍّ مجرّد– إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل ، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كلّ شيء ، والقصّة إحدى وسائله لإبلاغ هـذه الدعوة وتثبيتها ، شأنها في ذلك شأن مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب ، وشأن الأدلّة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله ، وشأن الشرائع التي يفصّلها والأمثال التي يضربها إلى آخر ما في القرآن من موضوعات ".[1]

و مـن إعجاز التعبير القرآني في أسلوب القصّة أنّه يمزج بين الغرض الديني والغرض الفنّي ويؤلّـف بيـنهما ، فنرى القصّة القرآنية تخاطب حاسّة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنيّة ؛ و هذه الطريقة تهيِّء النفوس للاستجابة إلى الخطاب وتُعدّ المتلقّي لتقبّل الفكرة التي ترمي إلى بنائها القصّة .[2]

لقـد تمّـت الإشـارة في مدخل هذا البحث إلى أنّ تركيب سورة هود يحتوي على ثلاثة قطاعات ، وأنّ القطاع الثاني يتضمّن حركة العقيدة في التاريخ ، ويشغل معظم سياق السورة ، ومن هـنا نعـلم أنّ اسـتعراض حركة العقيدة الربّانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز من القصـص. " فالقصص في هذه السورة هو قوامها ، ولكنّه لم يجيء فيها مُستقلاً ، إنّما جاء مصدِّقًا للحقائق الاعتقادية الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها ، والتي أجملها السّياق في مطلع السورة".[3]

ومـا دام استقصـاء كـلّ أغراض القصة القرآنية ممّا يعسر تحقيقه –لوفرة هذه الأغراض وتشـعّبها– ، فإنّني سأثبت هنا أهمّها وأحاول توضيحها بما يتماشى مع هدفي من هذا المبحث وهو: الإطّـلاع على مظاهر الإعجاز في أسلوب القصّة القرآنية وتميّزها وعلوّها على القصّة الفنيّة الأدبية . فكان من أهمّ أغراض القصص في سورة هود ما يأتي :

أولا- إثبات الوحي والرسالة:

" حـين جاء محمّد عليه السلام بهذه القصص الرائعة عن الأنبياء قبله بهذا البيان والتفصيل المحكـم –وهو النبيّ الأميّ الذي لم يتتلمذ على على أحبار اليهود ورهبان النصارى وسواهم– كان بذلك يقدّم أعظم دليل على أنّ ما يأتي به هو وحي إلهي"[4] ، والمشركون من أهل مكّة أدرى النّاس

---

1) التصوير الفني في القرآن ، ص119 .

2) انظر : لمرجع نفسه ، الصفحة ذاتها .

3) في ظلال القرآن ، 4/ 1870 .

4) مع الأنبياء في القرآن الكريم ، عفيف عبد الفتاح طبارة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط:17 ، آذار (مارس) ، 1989 ، ص24 .

بأنّ النبي -ﷺ- كان أميًّا لايقرأ ولا يكتب ، وقد لبث فيهم عمرًا من قبل أن يوحى إليه ، فما علموه عارفًا بأنباء الأمم التي مضت في التاريخ ، ولا عهدوه ممن يختلف إلى العلماء والحكماء من أهل الكتاب ، فأنّى له العلم بهذه القصص التي لم يطّلع عليها إلاّ خاصّة أهل الكتاب ؟

والقرآن الكريم ينبّه على هذه النّقطة في أعقاب بعض القصص أو في بدايتها وأثنائها ، ليبيّن أنّ هذه الأخبار ما كانت لتفترى من دون الله ؛ ولكنّها وحي من ربّ العالمين وتصديق الكتاب لاريب فيه . قال الله تعالى عقب قصّة نوح في سورة هود : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: 49] ، جاء في تفسير التحرير والتنوير : " والأنباء :جمع نبأ ، وهو الخبر . وأنباء الغيب: الأخبار المغيبة عن النّاس أو عن فريق منهم . فهذه الأنباء مغيّبة بالنسبة إلى العرب كلّهم لعدم علمهم بأكثر مجملاتها ، وهي أنّه كان في الزمن نبيء يقال له : نوح-عليه السلام- أصاب قومه طوفان ، وما عدا ذلك فهو غيب كما أشار إليه قوله :(مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا) ، فإنّهم لم ينكروا ذلك ولم يدّعوا علمه . على أنّ فيها ما هو غيب بالنّسبة إلى جميع الأمم مثل قصّة ابن نوح الرابع وعصيانه أباه وإصابته بالغرق ، ومثل كلام الرب مع نوح –عليه السلام- عند هبوطه من السّفينة ، ومثل سخرية قومه به وهو وهو يصنع الفلك ، وما دار بين نوح –عليه السلام- وقومه من المحاورة ، فإنّ ذلك كلّه مما لم يُذكر في كتب أهل الكتاب".[1]

ثانيا- تثبيت الرسول-ﷺ- على الحقّ والتسرية عنه:

إنّ تلك الفترة العصيبة التي أنزلت فيها سورة هود كانت حافلة بشتّى أنواع الأذى يتعرّض لها النبي -ﷺ-وأصحابه ، والمشركون لا يألون جهدًا في فتنة المؤمنين عن دينهم ، فكان في فسحة ذلك القصص البديع إيناسًا للنبي -ﷺ-وتثبيتًا لقلبه " وما لجأ القرآن إلى القصص أسلوبًا إلاّ لطمأنة للرسول -ﷺ-وتوطيد أسلوبه الإبلاغي الآخر ؛ فكان القصص خطابًا عن الماضي يؤازر خطاب الحاضر ولمحة عن الأمس تشدّمن عضد اليوم ورسالته".[2]

وتحقيق هذا الغرض من أهمّ ما تولّته سورة هود : فبعد أن بدأت بعرض دعوة النبيّ -ﷺ- وإثبات النبوّة والرسالة له ، ثمّ تأييده بإعجاز القرآن وتحدّي المشركين أن يأتوا بعشر سور مثله ، ثمّ

1) التحرير والتنوير ، 12/ 92 .

2) البنية السردية في القصص القرآني ، حسن نحمد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ، ص111 .

تحذيره من نبذ الدعوة وترك بعض ما يوحى إليه تحت ضغط افتراءات وشبه الكفار ، نجد هذه السورة -بعد ذلك- تُوغل في عمق التاريخ ؛ لتورد طائفة من قصص الرسل الأكرمين[1] ، فكان من أهداف هذا القصص التاريخي أن يقدّم للنبيّ -ﷺ-رصيدًا من تجارب إخوانه الرسل والأنبياء -عليهم السلام- ، وأن يقدّم للجماعة المؤمنة صورًا صادقة لأحداث الدعوة وجهاد المؤمنين ، وما لاقوا من متاعب، وما صادفوا من محن، وما قام في سبيل الدعوة من عقبات وما بذلوا من جهود، وما تحلّوا به من صبر وثبات، حتّى تمّ لهم النصر والتثبات في نهاية المطاف"[2]؛ ولذلك يقول الله-ﷻ-عقب قصّة نوح:﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [هود: 49] ويقول في التعقيب على مجمل القصص في نهاية السورة:﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١١٥ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ ﴾ [هود: 115-116] .

وقد تبيّن المولى -سبحانه- في هذه السورة أنّ تثبيت النبيّ -ﷺ-هو أحد الأغراض التي جاء القصص لتحقيقها فقد قال تعالى – تذييلا وحوصلة لما تقدّم من أخبار القرى وأنباء الرسل - : ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾ [هود:120]" وتثبيت فؤاد الرسول -ﷺ- زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله ؛ لأنّ كلّ ما يُعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكّرا وعلمًا بأنّ حاله جارٍ على سنن الأنبياء ، وازداد تذكّرا بأنّ عاقبته النصر على أعدائه ، وتجدّد تسلية على ما يلقاه من التكذيب ، وذلك يزيده صبرًا " .[3]

ثالثا- الإنذار والإعتبار :

إنّ عرض مصائر من خلوا دليل على سنّة الله المطّردة في إهلاك الظالمين ونصر المؤمنين،وبرهان على قدرة الله تعالى وبطشه :قال -ﷻ-:﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ

1) أنظر : بحوث في قصص القرآن ، السيد عبد الحافظ عبد ربه ، دار الكتاب اللبناني ،بيروت ،لبنان ،ط:1، 1972،ص184.
2) منهج القصة في القرآن ، ص36 .
3) التحرير والتنوير ،12/ 192 .

أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ [هود: 100...103] ، فقد بيّن المولى -عزّ وجلّ- أنّ العقاب العادل الذي حاق بالظالمين وعذاب الاستئصال الذي حلّ بهم كان بسبب ظلمهم لأنفسهم ؛ بعبادتهم مالاينفعهم ولايغني عنهم شيئا ، وفي هذا " تحذير للمشركين من العرب من الاعتماد على نفع الأصنام ، فقد أيقن المشركون أن أولئك الأمم كانوا يعبدون الأصنام ؛كيف وهؤلاء اقتبسوا عبادة الأصنام من الأمم السابقين ، وأيقنوا أنّهم قد حلّ بهم من الاستئصال ما شاهدوا آثاره ، فذلك موعظة لهم لو كانوا مهتدين "[1] ، وفي الآيات تهديد لمشركي العرب من أهل مكّة وغيرها أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم ، وفيها تحذير من عذاب الآخرة ، "والمعنى : وكذلك أخذ ربّك فاحذروه واحذروا ما هو أشدّ منه وهو عذاب الآخرة [...] وفي هذا تخلّص إلى موعظة المسلمين والتعريض بمدحهم بأنّ مثلهم من ينتفع بالآيات ويعتبر بالعبر".[2] ولذلك قال الله تعالى في خواتيم السورة : ﴿ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: 120] ؛ " فهذه موعظة للمسلمين ليحذروا ذلك، وتذكير لهم بأحوال الأمم ليقيسوا عليها ويتبصّروا في أحوالها . وتنكير (موعظة وذكرى) للتعظيم .[3]

رابعا: بيان إعجاز القرآن:

استعمال أسلوب القصّة -إضافة إلى كونه تفنّنًا في الكلام- يدلّ على إحاطة القرآن بمتطلّبات النّفس البشرية التي تتوق إلى تنويع أساليب الخطاب ، وتتشوّق لسماع الأخبار والحكايا . كما أنّ التنقّل من أسلوب إلى أسلوب في الموعظة والنصيحة ينمّي رغبة النّفس في السّماع وينفي عنها الملل والسأم .[4] وقد جاء هذا الأسلوب لتحقيق غرض هامّ من أغراض القصص القرآني وهو بيان علوّ منزلة القرآن البلاغية ، وتفوّق أساليبه البيانية ؛ فهذا الأسلوب الجديد الذي سلكه القرآن لم يكن معهودًا للعرب ، وكان لبلاغته عميقُ الأثر في نفوس أهل اللّسان ، " وهو من إعجاز القرآن إذ لا يُنكرون أنّه أسلوب بديع ، ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه ... فكان من مكمّلات عجز العرب عن المعارضة ".[5]

---

1) المرجع السابق ، ص 159 .
2) المرجع نفسه ص 160 .
3) المرجع نفسه ص 193 .
4) انظر : قبس من نور القرآن الكريم ، الصابوني ،5/ 27 .
5) التحرير والتنوير ، 1/ 66 .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الموضوع " أنّ القرآن يتصرّف في حكاية أقوال المحكي عنهم فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت فيها ، فهو إذا حكى أقوالاً غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حدّ الإعجاز بالعربية ، وإذا حكى أقوالاً عربية تصرّف فيها تصرّفًا يناسب أسلوب المعبّر ،مثل: ما يحكيه عن العرب ، فإنّه لا يلتزم حكاية ألفاظهم بل يحكي حاصل كلامهم، وللعرب في حكاية الأقوال اتساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكيّة في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية ". (1)

بالإضافة إلى ما في القصّة القرآنية من رونق الأسلوب وبديع النّظم وجمال الصورة ، وقد وصف الله -ﷻ- القصص القرآني بأنّه أحسن القصص بقوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف : 3] .

وهناك أغراض أخرى -تتعلّق بالقصص القرآني في شتّى السور الكريمة- يصعب استقصاؤها، فنقتصر على ما ذكرنا إذ يحقّق الفائدة من هذا البحث .

المطلب الثالث: خصائص ومميّزات القصة القرآنية في السورة:

أسلوب القصّة القرآنية -كغيره من أساليب القرآن- أسلوب معجز ؛ بهر العرب ووقفهم على حقيقة أنّ هذا الكتاب ليس من وضع البشر ، وأنّه من غير الممكن لمخلوق أن يعارضه أو يأتي بمثله ؛ لأنّه كتاب إلهي أحكم آياته ثمّ فصّلها الحكيم الخبير ، الذي وسع كلّ شيء علما .

ولعلّ معرفة منهج القصّة القرآنية والاطلاع على الخصائص الفنيّة لهذا الأسلوب ومميّزاته ، هي التي تفتح لنا أبواب الدخول إلى حدائق القرآن ، وتمنحنا تذكرة السياحة في روضات قصصه وأمثاله . فكلّ من يدرك مميّزات هذا المنهج ويقف على خصائصه تتبدّى له مظاهر الإعجاز فيه ، فيزداد إيمانًا على إيمانه بعظمة هذا النور المبين وكماله وجلاله . فماذا عن منهج القصّة القرآنية ؟ وما أهمّ خصائصها التي ترقّت بها في معارج الجمال الفنّي ومقامات الإعجاز؟

اختصّ القرآن الكريم بمنهج فريد في قصصه ، إذ نجد القصّة القرآنية تختلف اختلافا واضحًا عن القصّة الفنية الأدبية التي يزاولها البشر في إبداعهم ؛ سواء أكان هذا الاختلاف في الموضوع أم في

1) المرجع السابق ، ص 120 ، 121 .

طريقة العرض أم في التعامل مع عناصر القصّة وكيفية توظيفها . ولعلّ مردّ هذا الاختلاف هو البون الشاسع بين ما تهدف إلى تحقيقه كلٌّ من القصّتين ؛ فإنّ اختلاف الهدف يُؤدّي إلى اختلاف وسائل تحقيقه .

القصّة الأدبية عمل فنيٌّ يطبعه القصور البشري في التعامل مع الأحداث وصياغتها ، وفي عرض وتصوير المشاهد ، وفي توظيف الشخصيات والحوار ...الخ ، وأما القصّة القرآنية –إضافة إلى طابع الكمال الإلهي الذي يتوّجها – فتهدف إلى خدمة أغراض نبيلة أصيلة ، وهي أغراض دينية بحتة، وما الأسلوب القصصي إلاّ أحد الأساليب الفنيّة التي استعملها القرآن للدعوة والهداية والتذكير ؛ قال تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:176].

أولاً : الخصائص الفنيّة للقصّة :

وددت –قبل التعرّف على مظاهر وآثار خضوع القصّة القرآنية في سورة هود للأغراض الدينية– أن نتعرّف على أهمّ الخصائص الفنيّة للقصص القرآني ، والمقصود هو تلك الخصائص الفنيّة العامّة " التي تحقق الغرض الديني للقصّة عن طريق الجمال الفنّي ، إذ إنّ هذا الجمال يجعل ورودها إلى النفس أيسر ووقعها في الوجدان أعمق ، والبحث على هذا النحو يتناول أربعة ظواهر فنيّة لها حساب معلوم في الدراسة الفنيّة للقصّة الحرّة في عالم الفنون [1] :

1- تنوّع طريقة العرض :

في سورة هود استخدم القرآن أكثر من طريقة لعرض القصص ، فنجد تنوّعا في طرق إدارة الحوار وتناول الأحداث ورسم الشخصيات وتصوير المواقف ، وهذا التنوّع لا يأتي اعتباطًا ، وإنّما يقتضيه المقام ويسوق إليه الغرض العام للقصّة .

" ومما ينبغي التركيز عليه في أمر القصص القرآني أنّ من سنّته الحكيمة عدم محاولة استيفاء العناصر في موقف واحد ، بل هي موزّعة التوزيع الذي يترك في كلّ موقف أثره المنشود [...] ومن أسرار ذلك أن تكون النفس مشوقة إلى استيفاء بعض العناصر ..فتدرك جانبا منها في مقام وجانبا آخر في مقام آخر... وهكذا حتى تستكمل القصّة جميع عناصرها ويبلغ الأمر مبلغه من المعاني المنشودة التي يستهدفها القرآن الكريم في قصصه. ومن هنا كنّا نرى عنصر الأحداث هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها إلى التخويف والإنذار [كقصّة نوح التي كان التركيز فيها على حادثة

1) انظر: التصوير الفني في القرآن ، ص 148 وما بعدها .

الطوفان] . وعنصر الأشخاص وهو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها إلى الإفاضة والإيحاء وإلى تثبيت قلب النبي -ﷺ- ومن اتبعه من المؤمنين ؛ [كقصّة إبراهيم التي ركّزت على رسم الشخصيات ببعديها الجسدي والنفسي: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ [هود:72] ، ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود:75] ، وعنصر الحوار هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يُقصد منها إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية [كما نرى في قصّة نوح وشعيب] .[1]

2- تنوّع طريقة المفاجأة :

إنّ عنصر المفاجأة من أهم عوامل نجاح القصّة في تأدية أغراضها وقد وظّف القرآن الكريم هذا العنصر توظيفا عجيبا معجزا ، حيث نجد بعض القصص يتطوّر فيها اللّون الحدثي من المألوف إلى طبيعة تُبطل القاعدة وتخرق الناموس ، ومن أحسن الأمثلة على ذلك قصّة نوح التي توظّف فيها حادثة الطوفان كعنصر مفاجئ فقد كان " أمرًا غير مألوف بتلك الصورة عند البشر ، لم يصدّقه ابن نوح نفسه ، ولم يكن نوح أيضا يعلمه إلاّ بما أوحى الله إليه من علائمه ونذره ، فصار هذا الفعل هو الشطر الخارق في السرد القصصي القرآني ".[2]

وقد تأتي المفاجأة بطريقة أخرى غير متوقّعة تماما : ففي قصّة صالح نتابع جدلا محتدما بين النبي وقومه ، وبينما الرسول يردّ على حجج قومه تدخل على مسرح الأحداث مفاجأة – لم تكن منتظرة– وهي المعجزة التي غيّرت مسار القصّة وآذنت بختامها : ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود:64].

وتتّخذ المفاجأة منحى عجيبا آخر : فبينما نتابع حلقة من حلقات قصّة موسى وبعثه إلى فرعون ، إذ بالسياق ينتقل بنا في سرعة خاطفة ليعرض لنا مشهدا من مشاهد القيامة الحيّة المتحرّكة : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ

1) بحوث في قصص القرآن ، السيد عبد الحافظ عبد ربّه ، ص 80 ، 81 .

2) البنية السردية في القصص القرآني ، محمد بوعزّة ، ص 21 .

ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود:96-97-98] " ومن إعجاز القرآن أن يجعل من مشهد القيامة حلقة متممة للقصّة قرّبت فيه الجنّة للمتّقين وكشفت فيه الجحيم للمشركين ، فهذا هو الجزاء الحق والمصير المحتوم ، وكأنّما هو حاضر مشهود تنظر إليه العين وتراه ".[1]

3- ترك الفجوات بين المشاهد :

" ثالثة الخصائص الفنيّة في عرض القصّة تلك الفجوات بين المشهد والمشهد التي يتركها تقسيم المشاهد وقصّ المناظر ، بحيث تترك بين كلّ مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاّحق ، وهذه طريقة متّبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب " .[2]

وهذه ميزة بديعة من مزايا القرآن الكريم في أسلوبه القصصي ؛ فهو " يحذف من القصّة كلّ ما يمكن أن يستحضره السامع والقارئ من أحداثها ؛ لأنّه طبيعي لازم لما تُلي من القصّة ، كما حدث في قصّة نوح (في سورة هود) ؛ فلم يتحدّث عن المغرقين ولا عن جهودهم ومحاولاتهم ، ولا عمّا لقوه من الألم في أنفسهم ، ولا عمّا أحسّوا به من الندم لإعراضهم عن نوح ودعوته ، وإنّما يستأنف الحديث عن السفينة وهي تجري بهم في موج كالجبال ، وما يحقّ على الابن من العذاب لأنّه لم يستجب لأبيه ، ولم يتحدّث عن عدد أيام جريان السفينة أو استمرار نزول الماء ..الخ ، وإنّما يتركها لفهم السامع والقارئ " .[3]

4- خاصية التصوير الفنّي :

وظّفت القصّة القرآنية هذه الأداة لرسم المشاهد والحوار وإدارة الأحداث بطريقة مميّزة ، حيث يتمّ بواسطتها إحياء الشخوص ، وإضفاء الحركة على المشاهد ، وتجسيد الانفعالات وتقديم صورة محسّة متخيّلة للذّهن عن مجرى الأحداث .

وقد مرّ بنا من قبل أنّ قدرة القرآن على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر وبراعته في العرض والأداء يبعث الحياة في القصص ويحوّله إلى صور حيّة وشخوص متحرّكة ومشاهد تنبض بالحياة .

---

1) منهج القصّة في القرآن ، ص 17 .

2) التصوير الفنّي ، ص 154 .

3) القرآن وأنباء الأنبياء في تحنيث عن المعجزة الخالدة وأولي العزم من الرسل ، محمد فتحي حافظ قورة ، مكتبة مصر ، ط:1 ، ص 19 .

بقي أن نعلم أنّ التصوير الفنّي في القصّة أنواع وألوان : " لون يبدو في قوّة العرض والإيحاء ولـــون يبدو في تخييل العواطف والإيحاءات ، ولون يبدو في رسم الشخصيات . وليست هذه الألوان منفصـــلة ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين فيسمّى باسمه أمّا الحق فإنّ هذه اللمسات الفنية تبدو في مشاهد القصص جميعا " . (1)

ومن أحسن الأمثلة على فنيّات التصوير وتقنيات عرض المشاهد وتجسيد الأحداث ما نجده في قصّـــة نوح ، وبخاصّة في حلقة صنع السفينة وحادثة الطوفان ؛ إذ نرى المشهد الأوّل : " مشهد نوح وهو يصنع الفلك وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ [هود:38] والتعبير بالمضارع فعل الحاضر هو الذي يعطي للمشهد حيويته وجدّته فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير .يصنع الفلك. ونرى الجماعات مـــن قومه يمرون به فيسخرون [...] ، ثمّ مشهد التعبئة عندما حلّت اللّحظة المرتقبة : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ [هود:40] "[...] ثمّ يأتي المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطوفان: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:42-43] . إنّ الهول هنا هولان: هول في الطبيعة الصامتة وهول في الـــنّفس البشرية يلتقيان . وإنّنا بعد آلاف السنين ، لنمسك أنفسنا —ونحن نتابع السياق– والهول يأخذنـــا كأنّنا نشهد المشهد .وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلـــو الـــنداء . وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة [...] وهذا العاصفة ويخيّم السكون ويقضى الأمر . ويتمشّى الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النّفس والأذن :﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: 44] . (2)

---

1) التصوير الفني في القرآن ، ص 156.

2) في ظلال القرآن ، 4/ 1878-1879 .

ثانيا: آثار خضوع القصّة للغرض الديني:

جمعت القصّة القرآنية بين الخصائص الفنية وبين تحقيق الغرض الديني الذي سيقت القصّة من أجله ، وكانت هذه الخصائص مطوّعة تطويعا كاملا وخاضعة تماما لتحقيق أهداف القصص القرآني في الدعوة والإصلاح والتربية . وقد ترك خضوع الخصائص الفنيّة أثره وبصماته على شكل ومضمون القصّة ، ومن أبرز هذه الآثار :

1- التكرار:

مـــن أهمّ أهداف القرآن تذكير الغافلين وإزاحة الغشاوة عن بصائرهم ، ومن شأن تكرار القصـــص أن يخدم هذا الغرض الديني العظيم ، وهناك فوائد ومقاصد أخرى لتكرار القصص القرآني منها :

أ- رسوخها في الأذهان بتكريرها .

ب- ظهـــور البلاغة ؛ فإنّ تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ ، فإذا جاء اللاحـــق مـــنه إثر السابق مع تفنّن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز أو استعارات أو كناية ، وتفنّن في الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة فذلك وجه من وجوه الإعجاز .

ت- أنّ تلـــك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة ، ويذكر في بعض حكايا القصة الواحدة ما لم يذكر في بعضها الآخر ، وذلك لأسباب منها:

-تجنّـــب التطويل في الحكاية الواحدة فيُقتصر على موضع العبرة منها في موضع ويذكر آخر في موضع آخر فيحصل من متفرّق مواضعها في القرآن كمال القصة أو كمال المقصود منها وفي بعضها الآخر ما هو شرح لبعض .

- أن يكون بعض القصّة المذكور في موضع مناسبا للحالة المقصودة من سامعها .[1]

2- الإيجاز:

يلاحـــظ أنّ القصص القرآني نسج نظمه على أسلوب الإيجاز ليكون شبهه بالتذكير أقوى وقـــربه من الوعظ أدنى ، ولذلك نجد من مميزاته طيّ ما يقتضيه الكلام الوارد ، والتركيز على موضع العبرة من القصّة [2] . " إنّ السرد في بعض القصص القرآني لم يورد المكان ولم يُجر له ذكرا ، لأنه ليس هناك ما يدعـــو إلى ذلك ؛ فقد تكون ما تحمـــله القصص هذه فِكَـــرا عامة ، مما يجمُل معها

---

1) التحرير والتنوير ، 1/ 68، 69 .

2) انظر: المرجع نفسه ، ص 65 .

الـــتجريد لإلقاء درس في الكون الفسيح الرّحب الذي هو جماع الأمكنة ".[1] " أمّا أسماء الأشخاص وصـــفاتهم في القصص القرآني فيُلاحظ أنّ القرآن الكريم يذكر من السماء ما تدعو إليه حاجة القصة حتّى تترك أثرها في نفس القارئ أو السامع ، ولا يسرف في ذلك البيان حتى لا تفتر روعته ...ولكنه يمـــثّل للقارئ أو السامع صورا حيّة تمزّ المشاعر في دائرة الشخصيات التي تدور حولها أحداث القصة ...ويتطلّب ذلك في القصص القرآني بالذات أن تكون الأشخاص كائنة في الوجود ومعروفة مستيقنة لكل من القارئ والسامع".[2]

3- بثّ العبر والعظات:

" وكـــان من أثر خضوع القصّة للغرض الديني أن تمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة قبلها وبعدها وفي ثناياها كذلك ".[3] فمن ذلك التنبيه في ختام قصص سورة هود على أنّ عقاب الله عـــادل ، وأنه لا يأخذ القوم إلاّ بعد الإنذار، وبيان قدرة الله –ﷻ– وشديد بطشه والتخويف من مصير الظالمين .

فهـــذه أهـــم آثار خضوع القصّة في القرآن للغرض الديني ، ولعل جمع القصة القرآنية بين الغـــرض الديني والخصائص الفنية على النحو الذي رأينا في سورة هود ، من أهمّ ما يشهد بالإعجاز والتفوق الذي لا تطيقه قدرات الأدباء ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

---

1) البنية السردية ، محمد بوزّ ، ص 48 .

2) بحوث في قصص القرآن ، السيد عبد الحافظ عبد ربه ، ص 65 .

3) التصوير الفني في القرآن ، ص 139 .

المبحث الثالث:

أسلوب الالتفات وأسلوب التوهيم:

استعمل القرآن الكريم أساليب بيانية بديعة ، أثبتت للعرب ومن دونهم تفوّقه في البلاغة والبيان إلى حدّ الإعجاز ، وأسلوبا الالتفات والتوهيم من الأساليب التي تظهر فيها البراعة البيانية وقدرة المتكلّم على صوغ الخطاب والتفنن فيه ، وقد استخدم القرآن هذين الأسلوبين ببراعة فائقة معجزة . فما هو الالتفات وما هي أشكاله الواردة في سورة هود ؟ وما مفهوم التوهيم ؟ وكيف جاء في السورة ؟

المطلب الأول: مفهوم الالتفات وفوائده :

1-مفهوم الالتفات :

لعل أحسن تعريف للالتفات هو ما ورد في كتاب " البديع" لابن المعتز (ت 299هـ) إذ يعرّفه بقوله : " هو انصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك ، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر ". (1)

وهذا التعريف أوسع وأعمّ من الذي قدّمه قدامة بن جعفر (ت337هـ) وأبو هلال العسكري إذ اقتصر تعريفهما على المعنى الثاني الذي ذكره ابن المعتز . جاء في كتاب (نقد الشّعر) : " ومن نعوت المعاني الالتفات ، وبعض الناس يسمّيه الاستدراك ، وهو أن يكون الشاعر آخذًا في معنى فكأنّه يعترضه إمّا شكّ منه أو ظنّ بأنّ رادًّا يردّ عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعًا على ما قدّمه". (2)

2 – شروطه :

يذكر العلماء للالتفات شرطا واحدًا يتّفق عليه معظمهم ، وهو أن يكون المنتقل عليه

---

1) البديع ، أبو العباس عبد الله بن المعتز ، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ص 152 .

2) نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى،مكتبة الخانجي،القاهرة،ط:3، ص 146.وانظر: الصناعتين للعسكري،ص 392 .

والمنتقل عنه واحدًا .قال السيوطي : "شرط الالتفات أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائدا في نفس الأمر إلى المنتقل عنه ، وإلاّ يلزم أن يكون في (أنت صديقي) التفات" .[1] ومعنى ذلك : " أنّ يكون ضمير المخاطب – مثلا– المنتقل عنه هو نفسه يعود لمن جرى عليه الحديث بعد ذلك بأسلوب الغيبة – أي للمنتقل إليه– فإذا تخالفا ولم يتطابق الضميران – الخطاب والغيبة أو الغيبة والتكلّم– لم يُعدّ الأسلوب التفاتا بل هو كلام عادي كقول القائل : أنا زيد وأنت عمرو ، ونحن رجال وأنتم رجال ...ونحو ذلك " .[2]

ويذكر بعض العلماء شرطا آخر للالتفات وهو أن يكون في جملتين أي كلامين مستقلّين[3]، وقال الزركشي : " وفي هذا الشرط نظر ؛ فقد وقع في القرآن الكريم مواضعُ الالتفاتُ فيها وقع في كلام واحد ؛ وإن لم يكن بين جزأي الجملة " .[4]

3– فوائده :

جاء القرآن الكريم على أساليب العرب في الخطاب ، وقد كانوا يستكثرون من أسلوب الالتفات في كلامهم ؛ لما فيه من فوائد بيانية . ونحن واجدون في كتاب الله هذا النوع من ضرق البيان على أدقّها وأرقاها وأعظمها فوائد ولطائف .

قال الزمخشري عند ذكره للالتفات في سورة الفاتحة :" وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرّفهم فيه ، ولأنّ الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد وقد تختصّ مواقعه بفوائد". [5]

من هذا القول نستنتج أنّ للالتفات فوائد عامة وخاصّة ؛ فمن الفوائد العامّة:[6]

– التفنّن في الكلام ، والتنقّل من أسلوب إلى أسلوب لما في ذلك من اتّساع مجاري الكلام وتسهيل الوزن والقافية ، وقد قال البيانيون : إنّ الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال حَسُنَ تغيير الطريقة.

---

1) الاتقان في علوم القرآن ، 3 / 157 .

2) الالتفات ، د.التيجاني بوريقة ، مجلّة جامعة الزيتونة (حولية علمية إسلامية تصدر عن جامعة الزيتونة بتونس) ، طبع: شركة فنون الرسم والنشر والصحافة ، القصبة ، تونس ، (1414هـ 1415هـ –1994م) العدد : 3 ، ص47 .

3) انظر : الإتقان للسيوطي ، 3/ 157 .

4) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، 3 / 331، 332 .

5) الكشاف للزمخشري 1/ 14 .

6) البرهان ، 3/ 325.

- تطرية السامع واستدراجه ، وتجديد نشاطه وصيانة خاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه ، كما قيل:

لاَ يُصْلِحُ النَّفْسَ إِنْ كَانَتْ مُصَرَّفَة إِلاَّ التَّنَـــقُّلُ مِنْ حَـــالٍ إِلَى حَـــالِ[1].

وأمّـــا فوائد الالتفات الخاصّة فتختلف باختلاف مَحَالّه ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلّم .[2] وسندرك بعض تلك الفوائد عند الحديث عن أقسام الالتفات الواردة في سورة هود .

المطلب الثاني: أقسام الالتفات وضروبه :

أولا- الانتقال من التكلّم إلى الخطاب:

الضـــرب الأول من ضروب الالتفات التي ذكرها العلماء هو تغيّر منحى الضمير من التكلّم إلى الخطـــاب . والفائدة من ذلك: " حثّ السامع على الاستماع حيث أقبل المتكلّم عليه وأنّه أعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة ".[3]

ومما ورد من هذا النوع في سورة هود قول الحق -عزّ وجلّ- -في وصف عقاب قرى قوم لوط: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود:82-83] فبعد التعبير -بضمائر المتكلّم - عن عملية التدمير والإهلاك وبعد وصف الحجارة التي رُجم بها قوم لوط ، نجد التفاتا بديعا إلى خطـــاب الـــنبي -ﷺ- فلم يقل -تعالى- (مسوّمة عندنا) بل قال (مسومة عند ربك) . وفي هذا الخطاب إظهار فضل عناية بتوجيه الموعظة إلى النبي -ﷺ- وتحذير قومه أن يصيبهم ما أصاب أولئك.

ومثل ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ

---

1) انظر : المرجع السابق ، ص314.
2) المرجع نفسه : ص 327.
3) الإتقان ، 3/ 153.

ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ ﴾ [هود:101] . فقد بدأ بضمير المتكلّم في (وما ظلمناهم) ثمّ التفت إلى خطاب النبي -ﷺ- فلم يقل (لما جاء أمرنا) بل قال :(لما جاء أمر ربك).

ومثل هذه الآية في الالتفات من التكلم إلى خطاب النبي -ﷺ- قوله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ [هود:110] فلم يقل (سبقت منا) . وقوله تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۚ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾[هود:116-117] ولم يقل (وما كنا مهلكي القرى).

ثانيا-الانتقال من التكلم إلى الغيبة:

القسم الثاني من أقسام الالتفات هو الانتقال من التكلّم إلى الغيبة ، وفائدته " أن يفهم السامع أنّ هذا نمط المتكلّم وقصده من السامع حضر أو غاب ، وأنّه ليس في كلامه ممن يتلون أو يتوجّه ويُبدي في الغيبة خلاف ما يُبديه في الظهور".(1)

ومن هذا الضرب قوله تعالى – في قصة هود عليه السلام-:﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾ [هود:58-59] فعند ذكر الله-ﷻ- لرحمته المؤمنين من قوم هود استعمل ضمائر المتكلم:(نجينا-برحمة منا-نجيناهم) ، وعند الحديث عن العصاة الطغاة التفت فاستعمل ضمائر الغيبة فقال تعالى :(جحدوا بآيات ربهم) ولم يقل (جحدوا بآياتنا) ، وقال: (وعصوا رسله) ولم يقل(عصوا رسلنا) فأنزلهم منزلة الغائب ، ولم يوله كبير اهتمام استبعادا لهم وتحقيرا لشأنهم ، بخلاف المؤمنين الذين أضافهم إلى ضمير المتكلم احتفاء بهم ورفعا لذكرهم .

1) نرجع السابق ، 3/ 154.

ثالثا- الانتقال من الخطاب إلى التكلم:

هـــذا هو النوع الثالث من أنواع الالتفات ، وهو عكس النوع الأول . وقد ذكر السيوطي في الإتقـــان أنّ هذا النوع غير موجود في القرآن الكريم فقال :" ومثاله من الخطاب إلى التكلّم لم يقع في القرآن ، ومثّل له بعضهم بقوله :(فاقض ما أنت قاض) ثم قال:(إنّا آمنّا بربّنا) . وهذا المثال لا يصح لأنّ شرط الالتفات أن يكون المراد به واحدا ".[1]

بيد أنّه يمكن التمثيل لهذا النوع بقوله تعالى – في قصة شعيب عليه السلام-: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود:90] فقد وجّه شعيب كلامه إلى قومه داعيا إياهم إلى الاستغفار والتوبة ، وأضاف " الرب" إلى ضمير قومه: (ربكم) ، ثمّ التفت فأضاف "الرب" إلى ضـــمير نفسه: (ربي) . وفائدة هذا الالتفات التفنن في الكلام ؛ قال صاحب التحرير والتنوير : " وتفـــنن في إضـــافة الـــرب إلى ضمير نفسه مرّة وإلى ضمير قومه أخرى لتذكيرهم بأنّه ربّهم كيلا يستمروا في الإعراض ، وللتشرّف بانتسابه إلى مخلوقيته ".[2]

رابعا- الانتقال من الخطاب إلى الغيبة:

الضرب الرابع من ضروب الالتفات هو الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾ [هود:93] فقـــد انتقل – في مقام تحذير قومه وتهديدهم- من مخاطبتهم إلى الحديـــث عنهم بصيغة الغائب ؛ فهم المقصودون بقوله (من يأتيه عذاب يخزيه) ولم يقل لهم : سوف تعلمون حين يأتيكم عذاب يخزيكم .

ومنه قوله تعالى – في التعقيب على القصص- : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:102] فقـــد كان الكلام موجّها إلى النبي –ﷺ- وأضيف "الرب" إلى ضمير المخاطب ، ثمّ انتقل من الخطاب إلى الغيبة لوصف عقاب الله فقال تعالى: "إنّ أخذه أليم شديد" ولاشكّ أنّ ذلك أوقع في النّفس وأبلغ من اتّباع أسلوب واحد في الخطاب ، إذ

1) المرجع السابق ، ص 154.

2) التحرير والتنوير ، 12/ 147.

لم يقـــل : إنّ أخذ ربّك أليم شديد . ولعلّ الالتفات هنا من الخطاب إلى الغيبة يشي بعظمة العقاب ويوحي بشدّة الأخذ والعذاب ، وذلك أوفى وأجدى في الموعظة والتذكير.

ومثيل ذلك قول الله- ﷻ- : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [هود:111] حيث بدأ بخطاب النبي -ﷺ- وأضاف "الرب" إلى ضمير المخاطب (ربك) ثم عدل عن الخطاب إلى الغيبة باستعمال ضمير الغيبة في (إنّه) فلم يقل : إنّ ربّك بما تعملون خبير .

خامسا- الانتقال من الغيبة إلى التكلّم:

الـــنوع الخامس من أنواع الالتفات هو الانتقال من الغيبة إلى التكلّم ومثاله قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴾ [هود:7] فـــالله -ﷻ- يتحدّث عن نفسه وعظمته وآثار هذه العظمة في الكون والوجود مستعملا في الكلام ضمائر الغيبة تعظيما لذاته العليّة ، ثمّ ينتقل إلى الحديث عن الذين كفـــروا به غير مدركين لعظمته -ﷻ- فيلتفت من الغيبة إلى التكلم ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾[هود:8]و لم يقل:ولئن أخّرَ عنهم العذاب.

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ﴾ [هود:102-103] فقد استعمل المولى-ﷻ-أسلوب الغيبة تعظيما لأخذه القرى الظالمة. ثمّ قال تعالى:﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [هـود:104-105] فالتفت من الغيبة إلى التكلّم في الحديث عن يوم القيامة ؛ فلم يقل : وما يؤخره ، بل قال : "وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ " .

وكذلك في قوله تعالى:﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[هود:115]ثمّ التفت من الغيبة إلى التكلّم فقال:﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ ﴾[هود:116]

ولم يقل: إلا قليلا ممن أنجى منهم .

سادسا- الانتقال من الغيبة إلى الخطاب :

النوع السادس من أنواع الالتفات : الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، وفائدة هذا النوع كفائدة النوع الأول في حثّ السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل عليه المتكلّم وخصّه بعنايته واهتمامه .

ومن هذا النوع قول الحق -جل جلاله- : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود:42] فقد تغيّر التعبيرمن حكاية نداء نوح باستعمال ضمير الغيبة إلى نداء نوح ابنه وخطابه إياه ، فهو لم يقل مثلا : ونادى نوح ابنه وكان في معزل ليركب معهم ولا يكون مع الكافرين ، بل توجّه بالخطاب إليه مباشرة آمرا ناهيا : " اركب معنا ولا تكن مع الكافرين" ، وفائدة ذلك أن يضع المستمع والقارئ في قلب الحدث ، ويصوّر المشهد تصويرا حيّا ، فبينما نسمع حكاية ماضية عن نوح وهو ينادي ابنه إذ بنا أمام الحوار الحي النابض متمثّلا في خطاب الأب البر العطوف للولد العاصي المتمرّد ، وفي هذا الالتفات إقبال على المخاطب لعله يستجيب للنداء .

ومنه قول الله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود:65] فمن حكاية الجرم المرتكب من قبل ثمود - بضمير الغيبة - يتغيّر الأسلوب بسرعة فائقة ليُوجّه الخطاب العنيف والوعيد الشديد للمجرمين ، وذلك أدعى للتخويف والترهيب الذي يناسب شناعة الجريمة . فلم يستمر المولى -عز وجل- في حكاية حالهم ؛ ولم يقل : فعقروها فتمتّعوا في دارهم ثلاثة أيام . بل واجههم بالوعيد الذي لاعاصم لهم منه " فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام" ، وتحديد مدّة التمتّع بثلاثة أيام أشدّ وقعا في نفوس المتوعَّدين وأبلغ في عقابهم .

المطلب الثالث: ما يقرب من الالتفات:

هناك أنواع أخرى تتنوع فيها أساليب الخطاب ، ويُنتقل من أسلوب إلى آخر يصنّفها العلماء في دائرة ما يقرب من الالتفات لشبهها به ، ومن أهمها :

أولا- نقل الكلام إلى غيره :

يقرب من الالتفات نقل الكلام إلى غيره ، قال الزركشي : " وإنّما يفعل ذلك إذا ابتلي

العاقل بشخص جاهل متعصّب فيجب أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ؛ لأنه كلما كان خوضه معه أكثر كان بعده عن القبول أشد ، فالوجه حينئذ أن يقطع الكلام معه في هذه المسألة وأن يُؤخذ في كـــلام آخـــر أجنبي ويُطنب فيه بحيث ينسى الأول ، فإذا اشتغل خاطره به أدرج له أثناء الكلام الأجنبي مقدّمة تناسب ذلك المطلب الأول ليتمكن من انقياده ".[1]

ومـــثال ذلك مواجهة جدل المشركين الذين زعموا أن القرآن الكريم مفترى ، فقد تحدّاهم المـــولى -ﷻ- أن يـــأتوا بعشر سور مثله ، ثم تلا عليهم كلاما آخر حول قصّة نوح وأطنب فيه ، وفجأة نجد التفاتا في أثناء القصّة إلى مواجهة من قال إن القرآن مفترى ؛ قال تعالى :﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود:34-35] .

يقـــول سيد قطب حول هذه الآية : " وعند هذا المقطع من قصّة نوح ، يلتفت السياق لفتة عجيبة إلى اســـتقبال مشـــركي قـــريش لمثل هذه القصة ، التي تشبه أن تكون قصّتهم مع الرسول -ﷺ- ودعواهم أن محمدا يفتري هذه القصص . فيرد هذا القول قبل أن يمضي في استكمال قصّة نوح".[2]

ثانيا- الانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى غيره :

يقرب من الالتفات نقل الكلام من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى خطاب آخر، وهو ستة أقسام:[3]

أ- من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين .

ب- من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع.

ت- من خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد .

ث- من خطاب الاثنين إلى الجمع.

ج- من خطاب الجمع إلى خطاب الواحد.

ح- من خطاب الجمع إلى التثنية .

ومن هذه الأقسام الستة نجد قسمين في سورة هود :

---

1) البرهان للزركشي ، 3/ 333.

2) في ظلال القرآن ، 4/ 1876.

3) انظر: الإتقان للسيوطي ، 3/ 158.

■ **من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع**: كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ ثم قال : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود:13-14] ولم يقل : فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما أنزل بعلم الله . وكما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود:123] فلم يقل : وما ربك بغافل عما تعمل .

■ **من خطاب الجمع إلى خطاب الواحد**: كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ [هود:113-114] فقد انتقل من خطاب المؤمنين جميعا وتحذيرهم من مغبّة الركون إلى الذين ظلموا ، إلى خطاب النبي -ﷺ- المنطوي على خطاب المؤمنين معه وأمرهم بأداء الشعائر التعبدية .

ثالثا- الانتقال في الكلام من زمن إلى آخر:

يقرب من الالتفات أيضا الانتقال من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخر[1]. ولذلك أشكال متعددة منها :

1- من المستقبل إلى الأمر: وذكر الزركشي أن فائدة ذلك هي تعظيم حال من أجري عليه المستقبل، وتحقير حال من أجري عليه الأمر ، ومثّل له بقوله تعالى :﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ﴾ [هود:54-55] قال في البرهان : " فإنه إنما قال واشهدوا ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له ، ولا شك أن معنى إشهاد الله على البراءة صحيح في معنى يثبت التوحيد ، بخلاف إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة به فلذلك عدل عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر ".[2]

2- من المستقبل إلى الماضي: وفائدته تقريب زمن المستقبل ، وقال الزركشي :"والفائدة في المستقبل إذا أُخبر به عن الماضي لتبيين هيئة الفعل باستحضار صورته ،ليكون السامع كأنّه شاهد ".[3]

---

1) انظر : المرجع السابق ، الصفحة ذاتها .

2) البرهان ، 3/ 335، 336.

3) المرجع نفسه ، ص 127 .

ومثال ذلك في سورة هود قوله تعالى في شأن زوجة لوط : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ [هود:81] فلم يقل : إنّه مصيبها ما يُصيبهم وهو مقتضى الظاهر ، بل استعمل فعل المضي لتقريب زمن الماضي[1] ، ولسبب آخر هو الإشعار بتحقيق وقوع الأمر وثبوته وأنّه كائن لا محالة .

ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ ﴾ [هود:98] . التفت في الكلام من المستقبل إلى الماضي ، فلم يقل : فيُوردهم النار ، بل قال : " فأوردهم" . وهذه إحدى روائع التعبير القرآني المعجز ، قال صاحب الظلال : " وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ووعدا عن المستقبل ، إذ المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماض قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى ".[2]

3-من الماضي إلى المضارع : وفائدته استحضار الحالة الماضية وجعلها كأنها حاضرة واقعة وذلك أبلغ وأوقع في النفس ، ومن أمثلة ذلك في سورة هود قول الحق في قصة نوح : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ ﴾ [هود:38] قال ابن عاشور :" أي : أوحي إليه اصنع الفلك ، وصنع الفلك . وإنّما عبّر عن صنعه بصيغة المضارع لتخييل السامع أنّ نوحا –عليه السلام– بصدد العمل ".[3]

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود:74] . فلم يقل : (جادلنا) بل جاء بصيغة المضارع لاستحضار تلك الحالة وتخييلها ، ولا جرم أنّ التعبير بالمضارع هو الذي يمنح المشهد حيويته وجدّته .

هذه أهم الأشكال التي تقرب من الالتفات ، ولننتقل الآن إلى أسلوب آخر من أساليب القرآن البديعة المعجزة التي وردت في سورة هود ، وهو أسلوب التوهيم .

---

1) انظر : التحرير والتنوير ، 12/ 133 .
2) في ظلال القرآن ، 4/ 1924.
3) التحرير والتنوير ، 12/ 67.

المطلب الرابع: أسلوب التوهيم:

أولا-مفهومه:

جـــاء في لسان العرب :" وهمت في الشيء بالفتح ، أَهِمُ وهما إذا ذهب وهمك إليه وأنت تريد غيره ، وتوهّمتُ أي ظننت ، وأوهمت غيري إيهاما والتوهيم مثله ".(1)

ثانيا- فائدته:

التوهيم من أساليب القرآن البديعة المعجزة التي يُراد بها إثبات القدرة الإلهية على حسن نظم الكلام والتفنن في طرق صياغته ، وإخراجه في صورة تضطر السامع إلى إعمال العقل والتفكر والتدبر في آي القرآن الكريم . ومنه نوع يسمّيه بعض العلماء (المزلزل) : "وهو أن يكون في الكلام لفظة لو غُيِّر وضعها أو إعرابها تغيّر المعنى".(2)

ثالثا- نموذج من السورة:

لقد ورد هذا الأسلوب في سورة هود ؛ حيث يوهم ظاهر آية كريمة فساد المعنى أو خروجه عن دائرة البلاغة لكون اللفظ لا يأتلف مع المعنى . و ذلك في قول الحق —سبحانه وتعالى-: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[هود:24].

إنّ النظرة السطحية العجلى توهم صاحبها أنّ هناك اضطرابا في الآية وخللا في نظم الكلام، ويمضي به الوهم إلى اعتقاد أن تكون صحّة الكلام وبلاغته بأن يقال : مثل الفريقين كالأعمى والبصير والأصم والسميع . ليتلاءم بعض الألفاظ مع بعض وتتحقق المطابقة في الكلام كما في قول الله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ ﴾ [فاطر:19-20-21-22]وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ﴾[غافر:58].

---

1) لسان العرب ، 6/ 4934.

2) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن القيم إمام الجوزية (ت751هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:2 ،(1408هـ 1988م) . ص238.

بيد أنّ النظرة الثاقبة المتفحّصة يدرك أصحابها أنّ القرآن الكريم كتاب أنزله الله للناس ليدبروا آياته ، وبعض تلك الآيات يُستخدم فيها أسلوب التوهيم ليكون مهمازا يحضّ العقل على التفكّر والتحليل والتدبّر ؛ حتى يدرك عظمة القرآن وروعته وعلو منزلته في البلاغة والبيان .

إنّ ما يتوهمه القارئ من فساد واختلال في ترتيب الآية هو عين الصواب الذي لابد أن تأتي عليه ، وإنّ ما يتوقّعه من وجوب ما يكون عليه النظم والترتيب هو عين الخلل والخطأ ، لأنّ المولى –ﷻ– ضرب هنا مثلا لفريقين من الناس – بخلاف آيتي فاطر وغافر – وهما فريق المشركين وفريق المؤمنين ، وقد " شُبّه حال فريق الكفار في عدم الانتفاع بالنظر في دلائل وحدانية الله الواضحة من مخلوقاته بحال الأعمى ، وشُبّهوا في عدم الانتفاع بأدلة القرآن بحال من هو أصم .وشبه حال فريق المؤمنين في ضد ذلك بحال من كان سليم البصر سليم السمع فهو في هدى ويقين ".[1]

ولذلك قال الله تعالى بعد ضرب المثل : (هل يستويان مثلا) " فقوله (هل يستويان) بإسناد الفعل إلى ألف الاثنين يحول دون اعتقاد أربع مترادفات ويدل على أن هناك شخصين أحدهما أعمى أصم والآخر بصير سميع ".[2]

وقد حلل صاحب التحرير والتنوير هذه الآية وفسر مجيء العطف فيها على هذه الصورة تحليلا شافيا بقوله: " وقد يظن الناظر أن المناسب ترك عطف صفة (الأصم) على صفة (الأعمى) كما لم يعطف نظيراهما في قوله تعالى (صم بكم عمي) في سورة البقرة ظنًّا بأن مورد الآيتين سواء في أنّ المراد تشبيه من جمعوا بين الصفتين [...] والوجه عندي في الداعي إلى عطف صفة (الأصم) على صفة (الأعمى) أنّه ملحوظ فيه أنّ لفريق الكفار حالين كل حال منها جدير تشبيهه بصفة من تينك الصفتين على حدة ، فهم يشبهون الأعمى في عدم الاهتداء إلى الدلائل التي طريق إدراكها البصر ويشبهون الأصم في عدم فهم المواعظ التي طريق فهمها السمع ، فهم في حالتين ،كل حال منهما مشبّه به .[...] أما الداعي في عطف صفتي (البصير و السميع) بالنسبة لحال فريق المؤمنين فبخلاف ما قررناه في حال فريق الكافرين ؛ لأنّ حال المؤمنين تشبه حالة مجموع صفتي (البصير السميع) إذ الاهتداء يحصل بمجموع الصفتين فلو ثبتت إحدى الصفتين وانتفت الأخرى لم يحصل الاهتداء ".[3]

---

1) التحرير والتنوير ، 12/ 41.

2) الفصاحة والجمال في النص القرآني ، د. تمام حسان ، مجلة الدراسات القرآنية ، مركز الدراسات الإسلامية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن ، العدد: 1 ، 1999 ، المجلد:1 ، ص252.

3) التحرير والتنوير ، 12/ 42-41 .

فهـــذه الآية هي التي أصبتها مثالا لأسلوب التوهيم الذي يبقى على ندوره وقلته واحدا من أرقى الأساليب التي استُخدمت في القرآن الكريم –بالإضافة إلى أسلوب الجدل والأسلوب القصصي – فكانت دليلا هاديا إلى معرفة الإعجاز القرآني وإدراك أسرار هذا الكتاب الخالد الذي حاز نفائس الـــبلاغة وروائع البيان . ولعلّنا نقف على مزيد من تلك النفائس والكنوز عند الحديث عن الإعجاز الذي تضمّنته السورة في الأداء التعبيري والعرض التصويري والتأثير الساحر العميق .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

الإعجاز في الأداء والعرض والتأثير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول

الإعجاز في الأداء القرآني

المطلب الأول: تنوع طرائق الأداء التعبيري واستيفاء القرآن لها:

إنّ اختلاف طرائق الأداء التعبيري وتنوّعها أمر يستوجبه اختلاف الغرض المراد تحقيقُه من عملية تقديم المعاني وإيصالها إلى أذهان المتلقّين ، فإذا كان الغرض من التعبير أو توجيه الخطاب هو إقناع المخاطَب بفكرة معيّنة ؛ فلا بدّمن اتّخاذ الأسلوب المباشر في التعبير وسيلة لذلك ؛ مع مراعاة دقّة النّظم والتأليف ، وتجنُّب الفضول من الكلام. وأمّا إذا كان الهدف هو إثارة مشاعر النّفس ، ولمس عواطف الإنسان بُغية إحداث تأثير وجداني يحقّق الاستجابة اللاّزمة لدى المخاطَبين ؛ فلا بدّمن استعمال أسلوب تعبيري غير مباشر ؛ يعتمد رسم الصّور وعرض المشاهد .

" وحين يأتي أسلوب يتكفّل عرض الحقائق اليقينية والبرهنة عليها ، من أجل إحداث اليقين في نفوس المخاطَبين ، ويتوخّى في الوقت نفسه تبصيرهم بما ينفع وما يضرّ ، مستخدما أسلوب الإقناع القائم على دقّة النّظم وإحكام النّسيج وسلامة انتقاء الألفاظ ، ثم يعرض ذلك كلّه عرضا تصويريا فنيًّا رائعًا دون مبالغة أو تخييل يجنح به عن الحقّ والواقع ، ودون تكلّف يُفسد للنّص جماله ، أو يُخضع مضمونه لشكله ، وإنّما تشعر النّفس معه كأنّ المقام اقتضى ذلك ، والمعنى هو الذي ساق إليه ، فحين يأتي أسلوب هذه خصائصه ، يأخذ من كلّ أسلوب أجمل ما فيه وأدقّ ما فيه ، ثمّ يصوغ ذلك كلّه صياغة تُبهر النّفس ، وتأخذ بمجامع القلوب ، صياغة ترقى إلى قمّة القمم في البلاغة وروعة البيان ، وسحر العرض والتصوير ، والدّقة في التعبير ، دقّة تبتعد به عن التهافت ، وتنأى به عن التناقض أو مجانبة الحقائق ، فإنّ أسلوبًا هذه خصائصه لابدّ أن يكون مما يَعجزُ أيُّ إنسان ـــ مهما بلغ حظّه من ملكة الفصاحة والبيان ـــ أن يأتي بمثله" . (1)

وقد تفرّد القرآن الكريم – دون سواه من أساليب الأداء البشري – باستيفائه لجميع أنواع

---

1) للمدخل إلى دراسة الإعجاز القرآني ، ـــ دراسة تنظيرية ـــ ،د مجيد عبد الحميد ناجي ، مجلّة كلية الدّعوة الإسلاميّة ، العدد :13، 1996 ، طرابلس ، الجماهيرية الليبية ، ص155.

الأداء التعبيري ، وتوفّره عليها مجتمعة ، فجاء منها بما يُبهر النّفس ويُذهل العقل [1] ، تلك حقيقة يُدركها أكثر من غيره كلّ من خبِرَ فنون التعبير ، أو من كان له بصر بالأداء الفني والصّناعة الأدبية.

المطلب الثاني: خصائص وميزات الأداء التعبيري في سورة هود:

أولا - الميزة الأولى:

" يمتاز الأداء القرآني بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيّز يستحيل على البشر أن يعبّروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول ، وأدقّ تعبير، وأجمله وأحياه أيضا ! ، مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة و الإيقاع والظلال والجو". [2]

وهذه الميزة بارزة في سورة هود تطالعنا بها آياتها الكريمة ، فعند تأمّلنا مثلا لقوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود:7] ، نجد مثلا رائعا للإبداع ، ففي هذا الحيّز المحدود تُعرَضُ حقائق كبرى في هذا الوجود ، وتنتظم - بفضل ذلك الأداء السامي - في عقد جميل متناسق . حيث تؤكد الآية الكريمة دلائل الوحدانية والقدرة ، وآثارها في خلق السماوات والأرض ، وإقامة العرش على الماء ، وربط ذلك بالنظام الذي تقوم عليه حياة الناس ، ثم إبراز علاقة ذلك بالبعث والحساب والجزاء .

"والسياق يُظهر كأنّ خلق السماوات والأرض في ستة أيام - مع سيطرة الله -سبحانه- على مقاليده - كان من أجل ابتلاء الإنسان ، ليعظُم هذا الابتلاء ، ويشعر الناس بأهميتهم وبجدّية ابتلائهم " [3] . ومما يلفت الانتباه في الآية هو الجملة الاعتراضية : " وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ " ، والغرض منها بيان قدرة الله الباهرة ، فإنّ قيام العرش - وهو من أعظم المخلوقات-

---

1) انظر: المرجع نفسه ، ص 156.
2) في ظلال القرآن ، 3. 1787.
3) المرجع نفسه ،4. 1858.

على أساس الماء آيةٌ بيّنةٌ على العظمة الإلهية . قال الزمخشري : " ... وفيه دليل على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات والأرض ... وكيفما كان فالله ممسك كلّ ذلك بقدرته " . [1] وفي تناسق بديع ، تربط الآية بين خلق السماوات والأرض ، وابتلاء الناس ، وحقيقة بعثهم بعد الموت ، ويُبدي الأداء القرآني التكذيبَ بالنشور غريبا في هذه الأجواء ، ويُظهر المكذبين به غير مدركين لحقيقة كبرى في هذا الوجود ، فهم يصمونها بالسحر المبين : " ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين" ، "فما أعجبها من قولة ، وما أغربها ، وما أكذبها في ظل البيان الذي تقدّمها ". [2]

ومن سمات القرآن الكريم التي لها علاقة وطيدة بما نحن بصدده هنا : خاصية اقتصاده في اللفظ مع وفائه بحق المعنى . فلو نظرنا في قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود:112] لوجدنا ما يشهد بالإعجاز الخالد ، بيانٌ قد قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير ، في أوجز لفظ وأنقاه ، وأعمق معنى وأوفاه ، " فقد جمع قوله تعالى : (فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ) أصول الصلاح الديني وفروعه ". [3] وشمل الطغيان أصول المفاسد ، فكان النهي عنه قطعا لمصادر الفساد ، وكانت الآية جامعة لإقامة المصالح ودرء المفاسد . [4]

ومن دلائل إعجاز الأداء التعبيري أن ترسم ألفاظا قليلة صورا ومشاهدَ كثيرة ، وأن تحتشد في تعبير وجيز معانٍ عميقة ، وأن تغني عن سرد قصة – تتطلّب إزجاء قوافل الجمل والعبارات – كلماتٌ معدوداتٌ . مثال ذلك قوله تعالى – في أعقاب مشهد الطوفان – : ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ ﴾ [هود:44] . وأريد هنا أن أركّز على كلمتين اثنتين : (وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ) حيث تزدحم المعاني ، وتتسابق المدلولات المتنوّعة إلى الذّهن . قال ابن عطيّة : "وقوله تعالى (وقضي الأمر) إشارةٌ إلى جميع القصة: بعث الماء وإهلاك الأمم وإنجاء أهل السفينة ". [5] إضافة إلى تناسق بناء الفعل (قُضِيَ) للنائب مع بناء أغلب الأفعال في الآية : (قِيل ، غِيض، قُضِيَ، قِيل) وبناء الفعل للنائب للعلم بأنّ فاعله ليس غير الله تعالى ". [6]

---

1) الكشاف ، 2/ 380.
2) في ظلال القرآن ، 4/ 1859.
3) التحرير والتنوير ، 12/ 176.
4) انظر: المرجع نفسه ، ص177.
5) المحرر الوجيز ، 3/ 175.
6) التحرير والتنوير ، 12/ 79.

فأيُّ أداء في التعبير البشري بوسعه الارتقاء إلى هذا المقام المقدّس ، وكل القرائح في حضرته شموع يزري بها ضوء النهار.

ثانيا - الميزة الثانية:

ينشأ عن الميزة الأولى- التي ذكرناها آنفا - ظاهرة أخرى يتّسم بها الأداء القرآني : " هي أنّ النص الواحد يحوي مدلولات متنوّعة متناسقة في النص ، وكل مدلول منها يستوفي حظّه من البيان والوضوح ، دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات ". [1]

ومن أدلة ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود: 17] . فإنّ المدلولات التي تحتويها هذه الآية كثيرة ، ولذلك تنوّعت أقوال المفسرين في معناها ، فقد اختلفوا في المراد من قوله تعالى : (أفمن) هل هو محمد - ﷺ- ، أم المؤمنون به ، أم هو النبي -عليه السلام- والمؤمنون معا ؟ واختلفوا في المراد بـ (البيِّنة) فقيل: هي القرآن ، وقيل : محمد - ﷺ-. واُختُلِفَ أيضا في المراد بـ (الشاهد) فقيل: بأنّه جبريل ، وقيل : هو لسان النبي - ﷺ- ، وقالت فرقة : هو علي بن أبي طالب ، وقيل : هو الإنجيل ، وقيل : القرآن ، وقيل : إعجازه . ويتصرف قوله تعالى : (ويتلوه) على معنيين : بمعنى يقرأ ، وبمعنى يتبعه ، ومردُّ هذا التصرُّف الخلاف المذكور في الشاهد . [2]

قال ابن عطية : " فإذا قلنا إنّ قوله:(أفمن) يراد به المؤمنون ، فإن جعلت بعد ذلك(البينة) محمدا - ﷺ- صح أن يترتّب (الشاهد) الإنجيل ، ويكون (يتلوه) بمعنى يقرأه ، لأنّ الإنجيل يقرأ شأن محمد ﷺ، وأن يترتب جبريل عليه السلام ويكون (يتلوه) بمعنى يتبعه أي في تبليغ الشرع والمعونة فيه ... وإن جعلنا (البيّنة) القرآن على أنّ (أفمن) هم المؤمنون ، صحّ أن يترتّب (الشاهد) محمد - ﷺ- ، وصحّ أن يترتّب الإنجيل وصحّ أن يترتب جبريل ، ويكون (يتلوه) بمعنى يقرأه ، وصحّ أن يترتّب (الشاهد) الإعجاز، ويكون (يتلوه) بمعنى يتبعه، ويعود الضمير في (منه) على القرآن. وإن جعلنا (أفمن) للنبيّ - ﷺ- كانت (البيّنة) القرآن ، وترتّب (الشاهد) لسان محمد - ﷺ- ،

---

1) في ظلال القرآن ، 3/ 1787.

2) انظر: المحرر الوجيز ، 3/ 157.

وترتب الإنجيل وترتّب جبريل ، وترتب علي بن أبي طالب – ﷺ– وترتب الإعجاز ، ويتأوّل (يتلوه) بحسب الشاهد. [1]

وهكذا نجد فيضا في المدلولات والمضامين تزدحم في الآية الكريمة ، ولكن روعة ورقّي الأداء يربط بينها في نظام بديع وتناسق عجيب ، بحيث لا نجد في مدلولات الآية اضطرابا واختلاطا ، ولا نرى في المعاني عوجا ولا أمتا.

وآيــة أخرى – من آيات سورة هود– تتجسّد فيها هذه الميزة أيضا ، ذلك قوله تعالى على لسان شعيب – عليه السلام– : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: 89] فقوله– ﷻ– (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ) يحمــل مدلــولات متنوعة كثيرة ، ليس في طاقة الأداء البشري استيعابها بهذا الكم القليل من الألفاظ ، وفي هذا الحيِّز الضّيق من التعبير. قال الزمخشري في الكشّاف : " (ومــا قوم لوط منكم ببعيد) يعني أنّهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم ، فهم أقرب اهالكين مــنكم . أو لا يــبعدون منكم في الكفر والمساوي ما يستحقّ الهلاك ". [2] وقال صاحب التحرير والتنوير : " والمراد بالبعد بعد الزمن والمكان والنسب ، فزمن لوط – عليه السلام – غير بعيد [من] زمن شعيب – عليه السلام – والدّيار قريبة من ديارهم ، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة مجاورة معان ممــا يــلي الحجاز ، وديار قوم لوط من ناحية الأردن إلى البحر الميّت ، وكان مدين بن إبراهيم – عليهما السلام – متزوجا بابنة لوط ". [3]

ولعــل من روائع الأداء القرآني في هذا المجال أن نجد الحادثة الواحدة تتبري لخدمة أغراض شــتّى ، يبديها النص القرآني من خلال الأداء التعبيري متناسقة متلاحقة ، آخذة بأسباب بعضها في وحدة وتآخ عجيبين .

فالســورة الكريمة –وهي تعرض لقصص الرسل وأنبائهم مثلا– ، كانت تهدف إلى تحقيق أغراض عدّة منها : تثبيت قلب النبي – ﷺ– وتسليته وموعظة المسلمين بما حلّ بالأمم السابقة من

1) المرجع السابق، 3/ 157، 158.
2) الكشاف ، 2/ 422.
3) التحرير والتنوير ، 12/ 147.

الخـــزي والنَّكال ، وتذكيرهم بما فيه صلاحهم وسعادتهم . فهذه الأغراض قد تبدو متباعدة شيـــئا قليـــلا ، ولكن الأداء القرآني يسبكُها في قالب واحد فكأنها - وهي المتفرِّقة - غرض واحد . قال الله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : 120] . وهذه ظاهرة قرآنية بارزة " بحيث يُستشهد بالنص الواحـــد في مجـــالات شتّى ، ويبدو في كل مرة أصيلا في الموضع الذي استشهد به فيه ؛ وكأنّما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال وهذا الموضع ". (1)

ثالثا - الميزة الثالثة :

من مميِّزات الأداء القرآني ما اختص به من الجمع بين محاورة العقل لإقناعه ، ومخاطبة الشعور لإمـــتاعه . ذلك أنّ " في النفـــس الإنسانية قـــوّتان : قوة تفكير ، وقوة وجدان . وحاجة إحداهما غير حاجة أختها ، فأمّا إحداهما فتنقّب عن الحق لمعرفته وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجِّل إحساســـها بما في الأشياء من لذّة وألم . والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا ". (2)

" والقـــرآن الكريم يخاطب الكينونة البشرية بجملتها ، فلا يخاطب ذهنها المجرَّد مرة ، وقلبها الشـــاعر مرة ، وحسها المتوفِّز مرة ، ولكنه يخاطبها جملة ، ويخاطبها من أقصر طريق ؛ ويطرق كل أجهـــزة الاســـتقبال والتلقّي فيها مرة واحدة كلما خاطبها ... ويُنشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثُّـــرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها . لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تـــاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق ، وبهذا الشمول ، وبهذه الدقة ، وبهذا الوضوح ، وبهذه الطريقة والأسلوب أيضا ". (3)

وفي سورة هود من هذه المزيّة ما يدلّ المتأمِّل على سمو الأداء القرآني ، حيث يخاطَب العقل والقلـــب معـــا بلسان واحد ، فترى في متعة القصص ، وفي متعة السِّياحة عبر أطواء القرون ، وفي تصوير مشاهد الماضي ، حفظا لحق العقل واحترامًا لـــه ، إذ ينال نصيبه من العبر والحكم والفوائد

---

1) في ظلال القرآن ، 3/ 1787.

2) النبأ العظيم ، محمد عبد الله دراز ، ص113.

3) في ظلال القرآن ، 3/ 1788.

المعرفـــية ، ولا تكاد تخلو قصة من قصص هذه السورة من تعقيب فيه دعوة للعقل أن يتأمّل ويستنتج ويميّز ويتدبّر . بل قد يأتي تنبيه العقل في تضاعيف القصة وفي أثناء السرد ، كمثل ما نجده في قصة نـــوح – علـــيه الســـلام – وقومه يجادلونه في الحق الذي يدعوهم إليه ، حيث يمتزج فيها الخطاب الفكـــري بالخطـــاب الوجداني في صورة تشعُّ بالجلال والجمال : ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود : 32] . فبعدما يئس الملأ مـــن قـــوم نوح من مقارعة الحجة بالحجة ، واستنكفوا عن الإذعان للبرهان العقلي الفطري تركوا الجدل إلى التحدّي ، وطلبوا في غمرة تكبُّرهم وجهلهم أن يأتيهم نبيّهم بما أوعدهم .[1] وهنا يلتفت القرآن بروعة أدائه لينبّه العقل الخامد الغافل إلى أنّ وظـــيفة النبي لا تعدو أن تكون إبلاغا ونصحا ، وأنّ المشيئة الربانية هي القاهرة ، وأنّ المصير إلى الله ربّ العالمين : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : 33 ، 34] .

وفي أثـــناء عرض القرآن الكريم لقضيّة الإرادة الإلهية ، ذلك العرض البسيط الخالي من أيّ تعقـــيد – وهي القضيّة التي أمكنت عقول المفكرين والفلاسفة – لإقناع العقل البشري بها ، لا ينسى الأداء القـــرآني أن ينفث في الوجدان نفثات مؤثّرة ، تبعث الإنسان على تأمّل حاله وضعفه وعجزه تجاه القدرة الربانية القاهرة: " (وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) أي : ما أنتم بمعجزين لله عن أن ينالكم ما يقدّر لكم ، فأنتم دائما في قبضـــته ، وهو المدبّر والمقدّر لأمركم كلّه ؛ ولا مفرّ لكم من لقائـــه و حسابه وجزائه : (هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ".[2]

وفي الآيات المتجهة إلى تقرير الحقائق الإعتقادية ودعوة العقل إلى التأمّل والإيمان ، لا يُغفل الأداء القرآني ولا ينسى حظّ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب.[3]

ففي بداية السورة الكريمة يدعو القرآن الكريم إلى توحيد الله – ﷻ – وإفراده بالعبادة ونبذ

---

1) انظر: المرجع السابق ، 4/ 1875.

2) المرجع نفسه ، ص1875 ، 1876.

3) انظر : النبأ العظيم ، ص116.

الشـــرك ، ويقـــرر نبوة محمد - ﷺ- داعيا المشركين إلى الاستغفار والإنـــابة والتوبـــة : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [مود: 2-3] وفي أعقاب هذه الدعوة يحمل للتائبين البشرى ، ويرفع للمتولّين الوعيد - في نبرة إشفاق ووجل- : ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [مود: 3 ، 4] ، " والبشـــرى للتائـــبين والوعـــيد للمـــتولين هما قوام الرسالة ، وقوام التبليغ ، وهما عنصرا الترغيب والترهيب ، اللّذان علم الله من طبيعة البشر أنهما الحافز القوي العميق ". (1)

وفي عرض القرآن لمناهج الرسل الأكرمين في دعوتهم لأقوامهم ، تتجلّى خاصّية مزج الأداء القـــرآني بـــين خطاب الفكر والقلب ؛ فكلّ نبيّ وكلّ رسول يبدأ في تقديم رسالته بدعوة قومه إلى الإقرار بالعبودية للخالق - ﷻ- ، تلك الحقيقة الكونية الكبرى التي تدركها عقول البشر دونما عناء، وذلك في أسلوب هيّن ليّن ، ونغمة شجيّة نديّة : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [مود:50] . قالها هود وصالح وشعيب ؛ وهم يتلطّفون مع أقوامهم ، في عملية توجيه للنظر ، وتنبيه للعقـــل ، ولمس للوجدان ؛ (يا قوم) : في سماحة ومودّة وتودّد من النّبي لقومه ، تذكيرا لهم بأواصر القـــربى الـــتي تجمعهم وإياه ، بنداءهم ونسبتهم إليه ونسبة نفسه إليهم ، لعلّ ذلك يستثير اهتمامهم ويحقّق اطمئنانهم". (2)

والـــناظر في الســـورة الكريمة جملة يرى التداخل والترابط والتناسق بين هاتين الطريقتين في الأداء ؛ بما يحقّق إشباعًا لتَهَمِ العقل ، وشفاء لغليل العاطفة .

رابعا - الميزة الرابعة:

تعتـــبر ظاهرة التكرار في القرآن من أبرز مميّزات الأداء التعبيري الذي اختصّ به كتاب الله المجيد ، وهي من الكثرة والتفرّد بحيث لا تكاد تخفى على تالٍ للقرآن الكريم ، أو مستمع متدبّر لآي الذكر الحكيم . "وفي القرآن الكريم من هذه الظاهرة نوعان : أحدهما : تكرار بعض الألفاظ والجمل. وثانيهما : تكرار بعض المعاني كالأقاصيص والأخبار ". (3)

---

1) في ظلال القرآن ، 4/ 1896.

2) انظر: المرجع نفسه ، ص 1873 ، 1896.

3) الإعجاز في نظم القرآن ، د .محمود السيد شيخون ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ط :1 ، 1398هـ - 1978م ، ص73.

وقـــد تكررت في سورة هود ألفاظ و عبارات ، وذلك خدمة لأغراض معيَّنة ، وتنبيها على معان مميزة . فمن ذلك تكرُّرُ الأمر بعبادة الله وحده ونفي الشركاء عنه،حيث ورد في بداية السورة : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [هود:2].وورد على ألسنة الأنبياء-عليهم السلام-كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[هود:25-26] كما ورد هـــذا الأمـــر بصـــيغة أخرى وتكررت ثلاث مـــرات في السورة: " اعبدوا الله مالكم من إله غـــيره"وذلك في الآيات: [50 ، 61 ، 84]، وفي هـــذا التكرار تأكيد على أهميّة التوحيد ، وأنها القضيّة الأساسية التي تدور في فلكها باقي قضايا وأغراض السورة .

وتـــبعا لذلـــك نجد الأداء القرآني يهتم بإعادة الألفاظ والعبارات ذاتها عند دعوة الناس إلى الإنابة والاستغفار والتوبة – بعد دعوتهم إلى عبادة الله وحده – ؛ قال تعالى على لسان هود – عليه السلام-:﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾[هود:52] وقال على لسان صالح:﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [هود : 61] . وقال على لسان شعيب : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : 90].وهكـــذا يوجِّه كلُّ نبي قومه إلى الاستغفار والتوبة ، ويكرِّر السياقُ التعبير ذاته الذي جاء في أوّل السورة موجَّها لخاتم الأنبياء في دعوته لقومه والناس أجمعين : ﴿ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝١ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [هـود : 2 ، 3] .والمعـــــنى : " استغفروا من الشرك ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة . أو استغفروا ، والاستغفار توبة ، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ". (1)

والأداء القرآني يعمدُ إلى تكرار بعض الأساليب في السورة لفوائد ونكت بلاغيّة . فأسلوب الـــنداء مثلا يتكرر بشكل بارز ، خاصة في هذه الصيغة : (يا قوم) ، حيث تتكرر ثلاث مرات في قصـــة نوح ، وثلاثا مع هود ، وثلاثا مع صالح ، وذكرت مرة واحدة في قصة لوط وتكررت خمس مرات مع شعيب . وفي إعادة هذه النداءات تنبيه على جدّية الكلام وأهميّته ،كي تستحضر له الأذهان وفيه تفنُّنٌ في الكلام وتجديد لطرائق الخطاب .

" وأمّا النوع الثاني وهو تكرار بعض القصص والأخبار فيأتي لتحقيق غرضين هامّين :

---

1) الكشاف ، 2/ 378 .

الأوّل : إلهـــاء حقائق الدين ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها ، وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب ... .

الـــثاني : إخـــراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارات ، وبأساليب مختلفة تفصيلا وإجمالا ، وتصريف الكلام في ذلك حتى يتجلّى إعجازه ، ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده ... ".(1)

فـــلا يمكن أن نجد في قصص سورة هود معنًى مكررا في أسلوب واحد من اللفظ ، بل نجد في كل قصة أو حدث معنى جديدا ونرى شكلا آخر غير الذي ورد في سور أخرى ، حيث تُجمل قصة فصِّلت في موضع آخر ، كقصة موسى التي فصّلت في الأعراف مثلا ، أو تفصّل قصة أُجملت في مكـــان آخـــر ، كتفصيل قصة لوط مع قومه وقد أجملت في سورة القمر ، أو كحادثة الطوفان التي أُجملت في سورة القمر أيضا .

هـــذه أربع خصائص للأداء القرآني في سورة هود ،حاولتُ تجليتها دعما للقول بتفرّد هذا الأداء التعـــبيري العـــالي وتميُّزه وسموّه ، على أنّها ليست كل الميزات التي يتّسم بها أسلوب القرآن ، فهـــناك مميّزات يتجلّى بعضها فندركه ، ويخفى البعض فنحسُّ جلاله وروعته ، ونرى أثره في الفكر والقلـــب . كما أنّ الآيات التي ضربتُ من خلالها الأمثلة – توضيحا لهذه الميزات –ليست وحدها المشـــتملة على أسرار الإعجاز في الأداء ، بل السورة كلّها مثال رائع لتلك الخصائص ، وإنّما تعيّن اختيار أمثلة للتدليل على ذلك .

وهذا حال القرآن الكريم الذي أحكمَ آياته الحكيمُ الخبيرُ ، وجعل أسلوب أدائه البديع مادّة إعجـــازه .(2) فاســـتعلى على طاقة البشر وثبت أنّه من لدن العزيز الحكيم ، الذي دعانا إلى تدبُّره والاطلاع على كنوزه وذخائره . قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : 83].

---

1) الإعجاز في نظم القرآن ، محمود شيخون ، ص 74.

2) المرجع نفسه ، ص 66.

المبحث الثاني

الإعجاز في العرض القرآني

يمتاز القرآن الكريم ويتميّز عمّا سواه من كلام البشر في كيفية عرضه للحقائق التي يقرّرها ، والقضـــايا التي يعالجها ، فلقد بلغ ـــ في طريقة عرضه وتقديمه لتلك الحقائق والقضايا ـــ شأوا ليس يُطال ، ممّا يبعث على الإقرار بإعجازه وسموّه على طاقة الإنسان .

ولتستبينَ سبيلُ ذلك سأقدّم في هذا المبحث ثلاثة نماذج للإعجاز في العرض القرآني تضمّنتها سورة هود، ويتعلّق الأمر بعرض عقيدة التوحيد ، وعرض مشاهد القيامة ، وعرض مشاهد الغابرين :

المطلب الأول: في عرض عقيدة التوحيد :

" سورة هود من السور المكيّة التي تهتم بأصول العقيدة الإسلامية : توحيد الله جلّ وعلا ، أمر النبوّة والرسالة ، وقضيّة البعث والنشور ، وسائر أركان العقيدة الصافية ". (1)

وقضيّة العقيدة وحقائقها العظيمة ، هي القضيّة الجوهرية والمحورية في هذه السورة ، ولذلك اســـتُنفرت كل الأساليب والأغراض الأخرى في السورة – من قصص ، وجدل ، ووعد ، ووعيد ، وترغيب وترهيب – لخدمة هذه القضية وبيانها .

ولعـــل أهم ما عرضته السورة من حقائق العقيدة : حقيقة التوحيد ، وإفراد الله – ﷻ – بالعـــبادة ، والدعـــوة إلى نفي الشرك . ونظرا لأهمية هذه الحقيقة وأساسيّتها وأولويّتها سأكتفي بها كخير مثال لإعجاز القرآن في عرض العقيدة .

" يجب أن نبادر بالقول أنّ هذه الحقيقة لا تتجلّى في قول قائل كما تتجلّى في العرض القرآني ... فالذي يبتغي أن يستجلي هذه الحقيقة كاملة ليس أمامه إلاّ أن يقرأ القرآن ! ، إنّه في هذا المصدر وحـــده يمكنه أن يستجلي هذه الحقيقة كما هي في جمالها الباهر ، وكمالها الرائع ، وإشراقـــها وجلالها وشمولها وإحاطتها " . (2)

---

1) قبس من نور القرآن الكريم للصابوني ، ص7 .

2) مقوّمات التصور الإسلامي ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط : 4 ، 1414هـ ، 1993م ، ص241 .

هذه الحقيقة تعرضها أمامنا سورة هود في مقدّمتها ، فقد بدئت بتفصيل أمر التوحيد الذي هو أساس العقيدة واليقين . قال تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [هود : 2] " وهذه الجملة تفسيرية لما أُحكـــم من الآيات ، لأنّ النّهي عن عبادة غير الله ، وإيجاب عبادة الله هو أصل الدِّين ، وإليه مرجع جميع الصّفات التي ثبتت لله تعالى بالدليل ، وهو الذي يتفرع عنه جميع التفاصيل ولذلك تكرر الأمر بالتوحيد والاستدلال عليه في القرآن ". (1)

وعند تأمُّلنا لسورة هود نرى تلك المشاهد الرائعة التي تُجلّي حقيقة الألوهية في نفوس أولياء الله ، وفي نفوس الصّفوة من خلقه ، حيث نقف على كيفية معرفة تلك القلوب المؤمنة لإلهها الحق ، المـــتوحّد في الجلال ، ونرى كيف عرض القرآن الكريم ببيانه المُشرق وأسلوبه المعجز استشعار أولياء الله لعظمـــة الخالق وجلاله وقدرته ، وشعورهم بمودّته وقربه ورحمته ، وأنسهم به ، ثمّ دعوتهم الناس إلى ربهم وتعريفهم به.

نقف مع هذه الحقيقة في نفس نوح – عليه السلام – وهي تتجلّى في ندائه لقومه : ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود:26]. وفي يقينه وثقته بربّه وتوكّله عليه :﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ﴾ [هود:28- 29]. ثم في طلبه مغفرة ربّه ورحمته ، في إخبات وخضوع لا يملك أسلوب – غير أسلوب القرآن – أن يعبّر عنه ذلك التعبير الساحر : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود : 47] .

ونقف مع تلك الحقيقة حين يعرضها القرآن في قصة هود – عليه السلام – فنرى النبي يدعو قومه إلى الحقيقة الكبرى ، ونراه يحدّثهم عن آثارها في الكون : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: 50] ثم نراه وهو يتحدّاهم في النهـــاية تحدّي الواثق المطمئن في وجه القوة المجتمعة ، وهو فرد وحيد : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ

---

1) التحرير والتنوير ، 11 / 315 ، 316.

أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: 54،55، 56] .

ونقف مع صالح -عليه السلام- وقفة مثلها "لنرى طمأنينة قلبه لبيّنة ربّه في هذا القلب، وتعريفه لربه بما يعرفه من قدره،وخوفه منه مع قربه إليه"[1]: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود:61] ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود : 63] .

ونرى شعيبا – عليه السلام – وهو يدعو قومه إلى ما يعرفه عن ربّه من الوحدانية ، ومن العزّة والقوّة ، ومن الرّحمة والود : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [هود : 84] ونرى صدق توجُّهه ورجوعه إلى خالقه : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : 88] ، ثم نراه وقومه يتهددونه بالرجم ، لولا عزّة رهطه ؛ وهو يردّ عليهم بما يفيد أنّه لم يكن قط معوّلا على عزّة رهطه ، ولكنّه متوكّل على الله الذي هو أعزُّ من كلّ عزيز : ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود :91 ، 92] .

وأخيرا بعدما ينتهي النص القرآني من عرض هذه الحقيقة في موكب الرسل الكرام ، نأتي إلى ختام السورة أين نجد تلك الحقيقة تُقدّم في شكل بديع فائق الروعة ، دقيق وحاسم : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا

---

1) مقوّمات التصور الإسلامي ، ص228 .

تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 123] .

هـــذه هـــي الحقيقة الأولى البارزة في سياق السورة كلّه ... سواء في مقدّمتها التي تعرض مضمون الكتاب الذي جاء به محمد – ﷺ – أو في القصص القرآني ، أو في التعقيب الختامي ... إنّها التركيز على عبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة غيره .

وإذا تأمّلنا هذه السورة وجدنا حقيقة توحيد العبادة ترِدُ في صيغتين :﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ،﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ . فقد جاء التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد بالأمر والنّهي معا ، بحيث يؤكد أحدهما الآخر ، التوكيد الذي لا تبقى معه ثغرة ينفذ معها الشرك في صورة من صوَرِه .

" وهذا منهج مطرّد في التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد ، له دلالته من غير شكّ سواء في تجلـــية هذه الحقيقة وضخامتها ... أو في دلالة هذه الطريقة على علم الله– سبحانه – بطبيعة الكائن الإنساني ، وحاجته إلى تقرير هذه الحقيقة الكبيرة ... إلى التعبير الدقيق عنها على ذلك النحو ، الذي يتجلّى فيه القصد والعمد " [1] .

وأكثر ما يثير الانتباه في عملية عرض حقيقة التوحيد ، " تلك الحيويّة الدّافقة المؤثّرة الموحية – مع الدِّقة والتقـــرير والتحديد الحاسم – وهي تمنح هذه الحقيـــقة حيويّة وإيقاعا وروعة وجمالا ، لا يتســـامى إلـــيه المنهج البشري في العرض ولا الأسلوب البشري في التعبير ، ثم هي تُعرَض في دقّة عجيـــبة وتحديـــد حاسم ؛ ومع ذلك لا تجورُ الدِّقة على الحيوية والجمال ، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة ". [2]

المطلب الثاني: في عرض مشاهد القيامة:

لقد اعتنى القرآن الكريم بعرض مشاهد اليوم الآخر عناية بالغة ، واهتم بتقديم صور البعث والحساب ، والنعيم والعذاب في شكل ينطق بالإعجاز ، " فلم يعُد ذلك العالم موصوفا فحسب ، بل عاد مصوَّرا محسوسا ، وحيّا متحرّكا ، وبارزا شاخصا ، وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة، رأوا مشاهده وتأثّروا بها ؛ وخفقت قلوبهم تارة واقشعرّت جلودهم تارة ؛ وسرى في نفوسهم الفزع

1) في ظلال القرآن ، 4/ 1936.

2) مقوّمات التصور الإسلامي ، ص68.

مرّة ، وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولفحهم من النار شواظ ، ورفَّ إليهم من الجنّة نسيم ، ومن ثمة باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود . هذا العالم بسيط كلّ البساطة ، واضح وضوح العقيدة الإسلامية : موت وبعث ، نعيم وعذاب ... ولكن هذه الحقيقة البسيطة الواضحة تُعرض في صـــور شتّى ؛ وترتسم في عالم كامل حافل بالمشاهد ، وتتراءى في عشرات من الأوضاع والأشكال والسِّمات ؛ وتُؤلِّفُ بذلك ملامح فنيَّة رائعة تتملاّها النفس ، ويتابعها الخيال ، ويستغرق فيها الحس، وتتراءى فيها الظلال ". (1)

" وأيّـــا كانت الأوضاع والأشكال فإنّ هناك سمة واحدة شاملة : إنّها مشاهد حيَّة منتزعة من عالم الأحياء ، لا ألوان مجرّدة ولا خطوط جامدة ؛ مشاهد تُقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانـــات ، والخواطـــر والخلجات ، وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيّة ، أو في شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة ... ثم تفترق الشيات والسّمات بعد ذلك في شتّى المشاهد فلا تخلّ بهذه السّمة الأصيلة الشاملة لجميع المشاهد ". (2)

" وسمـــة أخـــرى كذلـــك أصيلة في هذه المشاهد جميعا : إنّها حاضرة اليوم تراها العين ، وتحسُّـــها النفس . والفارق السحيق بين العالمين فارق قريب ، بل لا فارق هناك بعض الأحيان ، بل ربَّما كانت " الأخرى " هي الحاضرة وكانت "الدنيا " ماضيًا بعيدا يتذكّره المتذكّرون " . (3)

" هـــذه المشـــاهد تعنى بتصوير مواقف الحساب ، قبل النعيم والعذاب ، وهنا نلتقي بألوان شتّى من طُرق العرض الكثيرة ، وسمات شتّى للموقف المعروض . مرّة يطول مشهد العرض والحساب حتى لنحسبه يدوم ، ومرة يعرض سريعا خاطفا لا تكاد تتملاّه العيون . وهذا أو ذاك تقرِّره الأصول الفنـــيّة، القائمة على أسس نفسيّة شعوريّة ، وتحدِّدُه طبيعة الموقف ، ويلتقي بالغرض الدّيني في النّهاية فيؤدّيه ". (4)

" وتُعنى هذه المشاهد بتصوير الهول في يوم القيّامة ، ذلك الهول الذي يشمل الطبيعة كلها، ويغشى النفس الإنسانية ويهزّها ". (5)

ومّما يتسلّق ذرى الكمال حتى يبلغ حدّ الإعجاز في عرض مشاهد القيامة من لدن الحكيم

---

1) مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، دار المعارف ، القاهرة ، ط :7 ، دت، 37 ، 83

2) المرجع نفسه ، ص 38 .

3) المرجع نفسه .

4) المرجع نفسه ، ص43 .

5) المرجع نفسه ، ص41 .

الخبير ، ما نلمسه في الآيات القرآنيّة وهي ترسم صور العذاب الأُخروي ، فنحسّ من الإيقاع العام هنا شدّة العذاب وغلظته ، ويُخيّل إلينا أنّنا نسمع هديره ودويّه ، وكذلك ما نلمسه في تلك الآيات- وهي تعرض مباهج الثّواب للمتّقين - من خلال الإيقاع الموسيقي الذي يملأ الصدر بهجة وغبطة، فيُخيّل إلينا أنّنا نشمُّ عبق الجنان وريحانها في كلام الحق - جلّ جلاله-. (1)

وهذه الآن مشاهد ثلاثة من سورة هود ، تعرض صورا من يوم القيامة ذلك اليوم الموعود المشهود ، يوم تُبلى السّرائر ، يوم يقوم النّاس لرب العالمين :

أولا ــ المشهد الأوّل: قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:18] .

"يبرز هنا عنصر التشهير و التّخْجيل ، فهؤلاء جماعة كذبوا على الله في الدُّنيا ، والاستفهام في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؟ استفهام يُراد به النَّفيُ: كأنّه قال : لا أحد أظلم ممن اختلق الكذب على الله " (2). " فهم يعرضون على ربِّهم في الآخرة ، وينبري الشهود أمام الجموع فيقولون :﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ هكذا بالإشارة والتخصيص ، ثمّ لقد كان الكذب على من ؟ على ربِّهم ! لا على أحد آخر ، وهذا أشنع". (3) فأيُّ خِزْيٍ أعظم من هذا الخزي ؟ وأيّة فضيحة أعظم من هذه الفضيحة على رؤوس الأشهاد ؟ .

ذلك التّشهير والتّشنيع الفاضح ، تعقبه اللّعنة المناسبة لشناعة الجريمة : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يقوضا الأشهاد، والأشهاد هم الملائكة والرُّسل والمؤمنون ، وهكذا يصوِّر التعبير القرآني أجواء المحاكمة الإلهية ، ويُلقي بظِلالها في الفكر والوجدان لتتأمّلها النفس ، ويتملاّها الحس ، ويسبح معها الخيال .

---

1) انظر : المدخل إلى دراسة الإعجاز القرآني ، د. مجيد عبد الحميد ناجي ، ص157.

2) قبس من نور القرآن الكريم ، للصابوني ، ص 22 .

3) مشاهد القيامة في القرآن ، ص126.

ثانيا ــ المشهد الثاني: قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود:96 ،97 ، 98 ، 99]. "هي خطوة يخطوها النّاس من الدُّنيا فإذا بهم في الأخرى ".[1]

يبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزوّدا بقوّة من الله وسلطان إلى فرعون وكبراء قومه ...فإذا هم يتّبعون أمر فرعون ويعصون أمر الله ، على ما في أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط ، وبما أنهم تبع له فسيقدمهم يوم القيامة .

"وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ووعدا عن المستقبل إذ المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماض قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى : ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ ، وما بئساه من ورد لا يروي غلّة ولا يشفي صدى ... وإذا ذلك كله : قيادة فرعون لهم وإيرادهم موردهم ... إذا ذلك كله حكاية تروى ويُعلّق عليها : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ، ويُسخر منها ويُتهكّم : ﴿ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾[2] . "فهذه النار هي الرفد والعطاء والمنّة التي رفد بها فرعون قومه ! فيا له من رفد ، ويالله من ورد ، ويالله من تناسق بديع في الصورة القرآنية : يؤمّهم في الدنيا إلى الضلال ويؤمهم في الآخرة إلى النار".[3]

ثالثا- المشهد الثالث: قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا

---

1) المرجع نفسه ، ص126.

2) انظر: في ظلال القرآن ، 4، 1924.

3) انظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص126.

يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: 102...108] .

يبدأ هذا المشهد بلهجة إنذار وتهديد مرعبة لمشركي مكة وما حولها ، متّخذا مما حاق بالقرى الظالمة من عذاب آية دالة على عذاب الآخرة ؛ مؤذنة بالمصير البائس و المآل المخزي الذي ينتظر كل ظلوم كفار. ويصف الله -عَزَّوَجَلَّ- ذلك اليوم العصيب بوصفين: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ "وهنا ترتسم صورة التجميع يشمل الناس جميعا وهم يشهدون هذا اليوم وينتظرون ما فيه". (1)

فأيّ يوم هو ذلك اليوم الرهيب الذي تخشع فيه الأصوات للرحمن فلا تَكَلَّمُ نفس إلاّ بإذنه ! فالصمت المرعب يغشى الجميع ، والرعب الصامت يخيِّم على المشهد ومن فيه ، والكلام بإذن لا يجرؤ أحد على طلبه ، ولكن يؤذن لمن شاء الله تعالى فيخرج من صمته بإذنه ...ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾.

" ومن خلال التعبير نشهد (الذين شقوا) ، نشهدهم في النار مكروبي الأنفاس ، من الحر والكتمة والضيق ، ونشهد : (الذين سعدوا) في الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع . وهؤلاء وأولئك خالدون ما دامت السماوات والأرض ، وهذا التعبير يُلقي في الذهن صفة الخلود وإن لم تكن السماوات والأرض خالدة ... وللتعبيرات ظلال معينة ولهذا التعبير ظلّ الخلود وهو المقصود هنا ". (2) قال صاحب الكشاف : ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ فيه وجهان : أحدهما: أن تراد سماوات الآخرة و أرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد ... والثاني : أن يكون عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع ، كقول العرب : ما دام تعار ، وما أقام ثبير ، وما لاح كوكب ، وغير ذلك من كلمات التأبيد". (3)

فأيُّ تعبير – بعدُ – يرقى إلى هذا التعبير عن أهوال ذلك اليوم ! وأيُّ تصوير يسمو إلى تصوير هذا القرآن لمشاهده ، وتشخيصه لأحداثه ! ألا إنّه الإعجاز الذي يقلب عقل الجاحد دونه خاسئا وهو حسير .

1) المرجع نفسه ، ص126.
2) في ظلال القرآن ، 4/ 1929. وانظر مشاهد القيامة في القرآن ، ص126 ، 127.
3) الكشاف ، 2/ 430.

المطلب الثالث: في عرض مشاهد الغابرين :

قال الباقلاني في التمهيد : " والوجه الآخر [من وجوه إعجاز القرآن] ما عليه القرآن من قصص الأوّلين ، وسِيَر الماضين ، وأحاديث المتقدّمين ، وذكر ما شجر بينهم ، وكان في إعصارهم ممّا لا يجوز حصول علمه إلاّ لمن كثر لقاؤه لأهل السير ودرسه لها وعنايته بها ومجالسته لأهلها ، وكان ممّن يتلو الكتب ويستخرجها ، مع العلم بأنّ النبي -ﷺ- لم يكن يتلو كتابا ولا يخطُّه بيمينه ، وأنّه لم يكـــن ممّن يُعرف بدراسة الكتب ومجالسه أهل السِّير والأخذ عنهم ولا لقِيَ إلاّ من لقوه ، ولا عرف إلاّ من عرفوه ، وأنّهم يعرفون دأبه وديدنه ، ومنشأه وتصرُّفه في حال إقامته بينهم... فدلّ ذلك على أنّ المخبر له عن هذه الأمور هو الله - سبحانه - علاّم الغيوب ، فهذا وجه الإعجاز في القرآن ".[1]

لقـــد عرضـــت سورة هود مشاهد للأمم السابقة ، وما كان من أمرها في تلقّي ومواجهة الرسالات السماوية،وكان من أهداف ذلك إثبات حقيقة الوَحي،"فأنباء هذه الأمم غيب من الغيب ، ما كان يعلمه النبي ، وما كان معلوما لقومه "[2] : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: 49]

بـــيد أنّ ما ابتغي التركيز عليه في هذا المقام هو : إعجاز القرآن في عرضه لتلك المشاهد ، وبيان تميُّز وتفرُّد التعبير القرآني في تقديمه لتلك الصور .

" إنّ التعـــبير القرآني يحيي المشهد ، فكأنّما هو واقعة حاضرة لا حكاية ماضية "[3] ، ففي قصـــة نوح - عليه السلام - يرسم لنا التعبير المشهد بطريقة مفاجئة : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود: 25] فلم يقُل المولى - ﷻ- (قال : إنّي نذير مبين) ، بـــل نقلنا إلى مسرح الأحداث - مباشرة - نقلة عجيبة ، أو كأنّما استحضر المشهد الغابر فإذا هو حاضر مجسّم ماثل أمامنا نتابع سير أحداثه ومواقفه ، فنوح عليه السلام يقول لهم الآن : إنّي لكم نذير مبين ، ونحن نشهد ونسمع ونرى ![4] .

---

1) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للباقلاني ، ص168 ، 187.

2) في ظلال القرآن ، 4/ 1870.

3) المرجع نفسه ، ص1871.

4) انظر: المرجع نفسه ، ص1870.

ويمضي التعبير القرآني البديع في عرض مشاهد حيّة ناطقة من حياة نوح الدعويّة ؛ فنراه وهو يُوجّه النّصح ويُسدي الهداية لقومه ، ونراهم وهم يرفضون ويُعرضون ، وهو يقدّم الأدلّة والبراهين على صدقه ، وهم يجادلون بالباطل ليُدحضوا به الحقّ ، ثمّ نرى مشهدًا آخر يتلقّى فيه نوح -عليه السّلام- وحي ربّه وأمره بصنع الفُلك ، ونهيه عن محاولة الشفاعة فيمن حقّ عليهم العذاب : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : 36-37] . ثمّ يأتي مشهد نوح وهو يصنع الفلك وقد اعتزل قومه وترك جدالهم : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: 38]."والتعبير بالمضارع ، فعل الحاضر [في بداية الآية]... هو الذي يُعطي للمشهد حيويّته وجدّته ، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير ". (1)

ثمّ مشهد التعبئة الشاملة عند حلول اللّحظة المرتقبة وفوران التّنور ، ثمّ يأتي المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطّوفان ، ويُتابع المرء مع التعبير القرآنيّ المعجز صور ووقائع ذلك الحادث الكونيّ العظيم ؛ وكأنّه يراه رأي العين.

ويُقضى الأمر ؛ ويمضي قوم نوح في التاريخ ، ويستخلف الله من بعدهم أمما أخرى ، ويُرسل فيهم رسله مبشّرين ومنذرين .

وتعرض السورة الكريمة مشاهد من حياة نبيّ الله هود -عليه السلام- ودعوته لقومه وتتجلّى لنا روائع التعبير الفنيّ في القرآن من خلال عملية عرض الأحداث وتصوير الوقائع ورسم الصّور وإحياء المشاهد ، فنمضي مع الحوار الهادئ النابض الحيّ إلى نهايته ، ونرى هودًا – عليه السّلام- وهو يتحدّى قومه الغلاظ الجُفاة ، ويرسم التعبير مشهد ذلك التحدّي مدعومًا بصورة محسوسة للقدرة الإلهية تتناسب والمقام تمام المناسبة: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : 54-55-56] . "والنّاصية: ما انسدل من شعر الرأس . والأخذ بالناصية هنا تمثيل للتمكّن ، تشبيها بهيئة إمساك الإنسان من

1) المرجع السابق ، ص 1877.

ناصيته حيث يكون رأسه بيد آخذه فلا يستطيع انفلاتا ". [1] "وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة ، تصـــوِّر القـــدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض ، بما فيها الدواب من الناس ... فهو القهر والغلبة والهيمنة ، في صورة حسيّة تناسب الموقف ، وتناسب غلظة القوم وشدّتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وتناسب غلظ حسّهم ومشاعرهم ." [2]

وأخيرا يصوِّر التعبير القرآني نهاية الرِّحلة في أسطر معدودة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: 58 ،59 ، 60] .

وتـــابع الســـورة عرض قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وهاهو ذا صالح -عليه السلام- يبلّغ رسالة ربه ، وقومه يرفضون ترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم ، ويبلغ بهم التَّحجُّر أقصى مداه ، ثم تأتي المعجزة القاهرة والبيِّنة الظاهرة ، شاهدة على صدق الرسول وعظمة المُرسِل : ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود: 64] . حذّرهـــم من مغبّة التَّعرّض للنّاقة بالسوء وإلاّ فسيُعاجِلُهم العذاب ، " يدلُّ على هذه المعاجلة فاء الترتيب، ولفظ قريب : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ :يأخُذهم أخذا، وهي حركة أشدّ من المسِّ والوقوع ". [3]

ولكـــن النُّفوس المتعطّشة للسوء لم تنفعها الموعظة ، فلقد أقدمت ثمود على الجريمة الشّنعاء بعقر النّاقة ، فتحقّق الوعد الصادق : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: 66 ، 67] . إن كانت إلاّ صيحة واحدة ، فإذا مشهد العذاب يرتسم ، وإذا مناظر الذين ظلموا رهيبة مرعبة : ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ثم

1) التحرير والتنوير ، 12/ 100.
2) في ظلال القرآن ، 4/ 1899.
3) انظر : المرجع نفسه ، ص 1908.

يختم عليهم بالطّرد و الإبعـــاد لأنّهم كفروا ربَّـــهُم : ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود : 68] .

ويسافر بنا التعبير القرآني في أطواء التاريخ ليعرض لنا مشاهد أخرى ، حيّة متحرّكة مؤثّرة ، تنطبع صورها في النفس ، ويمضي معها العقل متأمّلاً ، والقلب نابضًا:

يترل الملائكة ضيوفًا على لوط – عليه السلام– في قرية كانت تعمل الخبائث ، فيسري الهلع إلى نفـــس الـــنبيّ الكريم خوفًا على أضيافه من قومه الفاسقين ، ويُصوّر القرآن الكريم مدى الضيق والكرب الذي أمسى فيه ذلك النبي ، وما كان يكتوي به قلبه الطاهر النّقي :﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود:77] .

ويـــبدأ اليوم العصيب ، ويجيء القوم يهرعون مسرعين ، فيناشدهم لوط أن يتّقوا الله ربّهم ولا يفضحوه في ضيفه ، ولكنهم يرفضون في وقاحة وخسّة ولؤم .

ويصـــوّر لنا القرآن الكريم بروعة لا نظير لها خلاصة الكرب الذي عاناه نبي الله وهو ينافح عن ضيفه ، وقد سُقط في يده وأحسّ بضعفه ، وظنّ أنّه وحيد فريد ، لا ناصر له ولا مُعين ، وهاهو يُوجّه كلماته الأخيرة – في شبه اعتذار– إلى ضيوفه بنغمة أليمة حزينة ، تنبئ عن ضعف القوّة ، وقلّة الحيلة ، والهوان على النّاس : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود:80]. وغاب عن لوط في غمرة الذّهول أيّ ركن شديد ذلك الذي كان يأوي إليه ، فقد وصل المدد الإلهي إلى الرســـول المستضـــعف ، وأحيط النبيّ الخائف الوجل بالعناية السّماوية والتأييد الرّبانيّ . يعرض القرآن ذلك في مشهد مؤثّر:﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ [هود: 81،82،83] .

وتعرض لنا السورة مشاهد أخرى من حياة نبيّ الله شعيب –عليه السلام– مع قومه أهل

مدين ، فنتابع سير أحداث دعوته المباركة ، ونشاهد كفاحه وجهاده في سبيل هداية قومه بدعوته لهم إلى التوحيد ، وإلى الأمانة والعدالة في معاملاتهم المالية ، ونرى تولّي قومه وتهكّمهم به من خلال التعبير القرآني ، وما يشيعه من معان لطيفة : ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود : 87]. ومع هذا السّفه والهذيان ، تلطّف معهم شعيب – عليه السلام – وجادلهم بالتي هي أحسن فذكّرهم بمصائر الأقوام قبلهم ، ثمّ فتح لهم باب المغفرة والرحمة التي نلمسها في هذا التعبير الرّقيق الهادئ الحاني: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : 90] . ولكن قومه استمرّوا في ضلالهم ، طغيانهم وهدّدوا نبيّهم بالرّجم لولا عشيرته وعزّتها ومنعتها .

وكان شعيب صريحا وبيّنا في ردّه على هذا التهديد وموانع تنفيذه : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود : 92]. وهذه صورة حسيّة للتّرك والإعراض ، تزيد في شناعة فعلتهم ، وهم يتركون الله ويعرضون عنه وهم من خلقه ، وهو بما يعملون محيط ، والإحاطة أقصى الصُّور الحسيّة للعلم بالشيء والقدرة عليه . [1] ويعرض السياق المشهد الأخير المُخيف ، مشهد الإبادة الجماعيّة ، والاستئصال التام ، فإذا الذين كانوا يبخسون الناس أشياءهم ، ويريدون أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون قد أخذتهم الصّيحة فأصبحوا جاثمين في ديارهم ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۗ ﴾ [هود : 95] . وختمت قصّتهم بالدّعاء عليهم وإبعادهم ولعنهم كما لُعنت ثمود من قبلهم .

وهكذا نرى عمليات عرض المشاهد وتقديم الحقائق تتم بأساليب وكيفيات راقية تتناسق فيما بينها لتخدم أغراض القرآن . قال سيد قطب : " فالتصوير القرآني حين ينتهي من تناسق الألوان والأجزاء في الصورة أو المشهد ، وحين يُطلق حوله الموسيقى المكمّلة للجو ، لا ينتهي عند هذه الآفاق في تناسق الإخراج ، إنّ هناك خطوة وراء هذا كله ضرورية للتناسق وضرورية لتأثير المشهد وللكمال الفنّي فيه ، تلك هي المدّة المقرّرة لبقاء المشهد معروضا على الأنظار في الخيال ، والتناسق القرآني يلحظ هذا ويُؤدّيه أرفع أداء . بعض المشاهد يمرُّ سريعا خاطفا ، يكاد يخطف البصر لسرعته

1) انظر : المرجع السابق ، 4/ 1922 ، 1923.

ويكاد الخيال نفسه لا يلاحقه ، وبعض المشاهد يطول ويطول ، حتّى يُخيّل للمرء في بعض الأحيان أنّـــه لـــن يزول . وبعض المشاهد الطويلة حافل بالحركة وبعضها شاخص لا يريم ، وكل أولئك يتمّ تحقـــيقا لغرض خاص في المشهد ، يتّسق مع الغرض العام للقرآن ، ويتمُّ به التناسق في الإخراج أبدع التّمام ." (1)

1) التصوير الفني في القرآن ، ص107.

المبحث الثالث

الإعجاز في التأثير القرآني

المطلب الأول: سحر القرآن وسرّ تأثيره في القلوب:

يُعتبر تأثير القرآن العظيم في النّفوس ، وسلطانه على القلوب وجهًا بارزًا من وجوه إعجازه ، ودليلاً ساطعًا على عظمة منزله – ﷻ – قال أبو سليمان الخطّابي: " قلتُ في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه النّاس فلا يكاد يعرفه إلاّ الشّاذّ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النّفوس ؛ فإنّك لا تسمع كلامًا غير القرآن – منظومًا و لا منثورًا – إذا قرع السّمع خلص له إلى القلب من اللّذة والحلاوة في حال ، ومن الرّوعة والمهابة في أخرى ، ما يخلص منه إليه ؛ تستبشر به النّفوس وتنشرح له الصّدور". (1)

ـ لماذا وصف العرب المشركون القرآن بأنّه سحر؟

لا جرَمَ أنّ نعتهم له بهذه الصّفة إنّما يُعبِّر عن الجانب التأثيريّ له ، فهو يعمل في نفوسهم عمل السّحر (2) ، حتّى إنّ بعض زعمائهم لم يجد له أنسب من ذلك الوصف فقال بعدما فكّر وقدّر: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثّر:24] . (3) فأين مكمن السحر الذي تحدّث عنه هذا العربي البليغ بعد تفكيره وتقديره ؟

" لابدّ أنّ السحر الذي عناه كان كامنًا في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية ، لا بدّ أنه كامن في صميم النّسق القرآني ذاته ، لا في الموضوع الذي يتحدّث عنه وحده — وإن لم نغفل ما في طبيعة العقيدة الإسلامية من قوّة ومن جاذبيّة — فهذه الخصائص إنّما تتجلّى من

---

1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (بيان إعجاز القرآن للخطابي) ، ص70.

2) واقعيّة المنهج القرآني ، توفيق محمد سبع ، المكتبة العصريّة ، بيروت ، 1393هـ - 1973م ، ص425.

3) انظر : سيرة النبي – ﷺ – أبو محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، 1401هـ -1981- ، 1/ ، 283 ، 284 .

خلال التعبير الجميل المؤثّر المعبّر المصوّر ." [1]

ولا غـــرو أن يكـــون للكلام سحره ، وللقول نفثُه في عُقَدِ القلوب ، فكم من شعر تدفّق حكمة في قصائد الشعراء ، وكم من بيان جرى فتنة من أفواه البلغاء ؛ وقد قال نبيُّنا – ﷺ – : " *إنّ مِنَ البَيانِ سِحْرًا* " [2] ؛ فإذا كان من كلام الخلق ما يعلو ببلاغته وبيانه حتّى يهتك حجب الأفئدة ويطّلع عليها ، فكيف بكلام الخالق – ﷻ – ؟!

لقد سحر القرآن العرب وبهرهم ، وسلب عقولهم بنظمه وبيانه ، منذ نزول آياته الأولى إلى أن اكتملت سوره ، " وكان الإعجاز هو روحه الخفيّة ، تسري في قارئه ، فينبعث فيه الإقرار النفسي بأنّه كتاب إلهي ." [3]

ولولا أنّ القرآن الكريم ملك كنوز الفصاحة ، وحاز أسرار البلاغة ، لما صار أمره إلى أكثر مـــا ينتهي إليه أمر كل كتاب في الأرض ، ولكنّه أتى العرب من جهة لا قبل لهم بها ، ولا حيلة لهم معهـــا ، وهـــي ما يشبه أساليب الاستهواء في علم النفس ، حتّى استبدّ بهم واستولى على إرادتهم ، فكـــانوا ينـــتهون إليه في هروبهم منه ، ويخشعون لـــه وهم يصدّون عنه ؛ لقد أخذ عليهم بفصاحته جوانـــب الـــنفس العربيّة وجهاتها ، وأوثق أسرهم ببراعة أساليبه وقوّة إحكامها ، وما كان سعيُهم لنقض دعوته ورفضها ، واللغو فيه وتواصيهم بعـــدم السماع له إلاّ عنادا ، ومكابرة ما كان لها أن تتجاوز حناجرهم ، لأنّ اللسان وحده هو الذي يستطيع أن يتبرّأ من الشعور ويكابر فيه . [4]

هذا التأثير الخارق أو النجاح الباهر يُدركه كلّ قارئ وكل مستمع للقرآن ، عالم بأساليب العربية ، خبير بفنون التعبير وتقنياته فيها ، قال صاحب الظلال : " والذين زاولوا فنّ التعبير ، والذين لهم بصر بالأداء الفنّي ، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز ... إنّ الأداء القرآني يمتاز ويتميّز عن الأداء البشري ، إنّ له سلطانا على القلوب ليس للأداء البشري ، حتّى ليبلغ أن يُؤثّر بتلاوته المجرّدة على الذين لا يعرفون من العربية حرفا . " [5]

" إنّ تأثير القرآن ونفاذه يستحيل أن تتحصّن دونه القلوب ، فإنّه لو أنزل على صمّ الجبال

---

1) التصوير الفنّي في القرآن ، ص19 .

2) رواه الترمذي في سننه تحت رقم (2035) ، باب ما جاء إنّ من البيان لسحرا ، دار الفكر ، بيروت ، 1414هـ – 1994م ، 3/ 414.

3) الإعجاز الفنّي في القرآن ، عمر السلامي ، ص52.

4) إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة – مصرف – ص112 ، 113.

5) في ظلال القرآن ، 3/ 1786.

لفلقهـــا وشـــقّقها ، بما يودعه فيها من هيبة الله وجلاله " .[1] قال الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:21] " والمعـــنى لو كان المخاطب بالقرآن جبلا ، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثّر بخطاب القرآن تأثُّرا ناشئا من خشية الله ".[2]

المطلب الثاني: تأثير القرآن في نفوس أعدائه وأوليائه:

لم يقتصر تأثير القرآن الكريم على المصدّقين به من المؤمنين الخاشعين ، بل شمل العرب الذين تلقّوه ، مؤمنهم و جاحدهم ، برّهم وفاجرهم ، وقد ثبت أنّ هيبة القرآن وروعته جلبت إليه أسماع الذين كفروا به وتولّوا عنه مدبرين ، حتّى صغت إليه أفئدتهم فرضوْه ، ولانت لـــه قلوب كثير من جبّاريهم وطغاتهم فأحبّوه . حتّى لقد صدر منهم الاعتراف القسري بأنّه الكلام الذي يعلو ولا يعلى علـــيه ، ألم يقل الوليد بن المغيرة المخزومي : " والله إنّ لقوله لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإنّ أصله لعـــذق ، وإنّ فـــرعه لجـــناة ..." [3]؟ . إنّ في ذلك لآية بيّنة على القوة والحلاوة التي تستولي على النفوس ، وتسلب العقول .

ولـــيس ببعيد عن ذلك ما حكاه القرآن عن تواصي المشركين بعدم سماعه ، فهم ينهون عنه ويتأون عنه ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : 26] . " فإنّ قولهم هذا لَيَنِمُّ عن الذّعر الذي كان يضطرب في نفوسهم من تأثير القـــرآن فـــيهم وفي أتباعهم ، وهم يرون هؤلاء الأتباع يسحرون بين عشيّة وضحاها من تأثير الآية والآيـــتين ، والســـورة والسورتين يتلوها محمد أو أحد أتباعه السابقين فتنقاد إليهم النفوس ، وتهوي إلـــيهم أفـــئدتهم...ولم يقل رؤساء قريش لأتباعهم هذه المقالة وهم في نجوة من سحر القرآن ، فلولا أنّهـــم أحسوا في أعماقهم هزّة روّعتهم ، ما أمروا أتباعهم هذا الأمر، وما أشاعوا في قومهم بهـــذا التّحذير ، الذي هو أدلّ من كل شيء على عمق التأثير " [4] .

---

1) بيّنات للمعجزة المحمّدية ، ص 385.

2) التحرير والتنوير ، 28 / 116 .

3) سيرة النبيّ -ﷺ- لابن هشام 1/ 313 ، 314 .

4) التصوير الفنّي في القرآن ، ص 144 .

إذا بلـــغ التأثير القرآني في نفس من كذّب بآيات الله وصدف عنها هذا المبلغ ، ووصل إلى هذا المدى ، فكيف حال المؤمنين به ، الذين شهدوا لربِّهم بالوحدانية ، ولنبيِّهم بالرِّسالة ؟! لا ريب أنّ تـــأثير القـــرآن فيهم كان أقوى وأشدّ وأعمق . " وإذا تجاوزنا النفر القليل الذين كانت شخصية محمد -ﷺ- وحدها هي داعيتهم إلى الإيمان في أوّل الأمر كزوجه خديجة ، وصديقه أبي بكر ، وابن عمِّـــه عليّ ، ومولاه زيد وأمثالهم ، فإنّنا نجد القرآن كان العامل الحاسم ، أو أحد العوامل الحاسمة في إيمان من آمنوا أوائل أيّام الدّعوة " .(1)

لقـــد وصف الحقّ - ﷻ- القرآن الكريم ومبلغ تأثيره في قلوب المؤمنين الذين أحبتوا إلى ربِّهم أبلغ وصف فقال - ﷻ-: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [الزمر : 23] .

ومـــن هنا نعلم أنّ القرآن الكريم تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ، لما في آياته الكثيرة مـــن الموعظـــة الـــتي توجـــل منها القلوب ، " وهو وصف كمال لأنّه من آثار قوّة تأثير كلامه في الـــنفوس... وقـــد اقتضى قوله تعالى: ﴿ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾ أنّ القرآن يشـــتمل عـــلى معـــان تقشعر منها الجلود ، وهي المعاني الموسومة بالجزالة التي تثير في النّفوس روعة وجلالة ورهبة تبعث على امتثال السامعين له ". (2)

"والمؤمن لا تزال روعة القرآن وهيبته إيّاه مع تلاوته توليه انجذابا ، وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به " (3) . " وإنما يبعث هذا الميل في القلوب ، ما في القرآن من معان الرّحمة ، وذلك في الآيات الموصوفة معانيها بالسهولة " (4) ، وهاهنا موطن عجب للتّأمّل ! ، وهو كيفيّة جمع القرآن بين الـــتّأثيرين المتضّـــادين : مرّة بتأثير الرّهبة ، ومرّة بتأثير الرّغبة ، " ليكون المسلمون في معاملة ربِّهم جارين على ما يقتضيه جلاله ، وما يقتضيه حلمه ورحمته " . (5)

---

1) التصوير الفنّي في القرآن ، ص11.
2) التحرير التنوير ، 22/ 388.
3) معـــترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي ، 1/ 242.
4) التحرير والتنوير ، 22/ 389 .
5) المرجع نفسه ، ص 390 .

المطلب الثالث: نماذج وصور للتأثير القرآني خلال سورة هود :

بعد هذا العرض الذي قدّمته لتأثير القرآن الكريم في نفوس أتباعه ومناوئيه ، أريد الآن تقديم نماذج حيّة ، وصورا رائعة من سورة هود – عليه السلام – علّي أكشف جوانب – ولو يسيرة – من عوالم التأثير فيها ، وما تسكبه في النفس من روائع الترهيب والترغيب ، الأمر الذي جعل المصطفى – ﷺ – يعزو إليها – بأسلوب بلاغي رفيع – سبب مشيبه ، فقد روي عن ابن عبّاس – رضي الله عنهما – أنّه قال : قال أبو بكر – رضي الله عنه – : يا رسول الله ، قد شبت . قال : " شيّبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، (وعمّا يتساءلون) ، و (إذا الشمس كوِّرت) ".[1] وقد قال الحقّ – تقدّست أسماؤه في خاتمة هذه السورة – ﴿ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: 120] . فبالحق تقتنع وتؤمن العقول ، وبالموعظة توجل وتخشع القلوب ، وبالذكرى يستيقظ الضمير ، وهنا يبلغ التأثير مداه الأقصى ، فيحقق غرضه الأسمى . ولنشرع الآن النوافذ أمام روائع ذلك التأثير النّافذ :

أولا – حسن الابتداء وبراعة الاستهلال:

ذلك هو قوله تعالى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: 1 ، 2 ، 3]

لقد افتتح الله – عزّ وجلّ – هذه السورة بالحروف المقطّعة ، وفي ذلك براعة استهلال لا نظير لها . قال صاحب الصناعتين : " وإذا كان الابتداء حسنا بديعا ، ومليحا رشيقا ، كان داعيّة إلى الإستماع لما يجيء بعده من الكلام ، وهذا يقول الله – عزّ وجلّ –: " ألم ، وحم ، و طس، وطسم ، وكهيعص " فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد ، ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما

1) رواه الترمذي في سننه تحت رقم (3308) ،كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة الواقعة ، 5 / 193.

بعده ... ". [1] وكيف للمرء – يفتح المصحف الشريف على هذه السورة الكريمة – أن لا تهزّه منها روعة هذه الحروف في تقطّعها ، ومداها ، وسكناها .. وهو يُواجه بقلبه جلال الوحي ينسكب في عقله وروحه ، " ولا تنفكّ هذه الفواتح من عوامل الاستغراب ، ولا يخلق الاستغراب إلاّ الاهتمام، ولا يثير الاهتمام إلاّ التّنبيه ، ولن ينبه الناس ويقرع أسماعهم صوت أحلى وقعا من هذه الحروف المقطعة ." [2]

ثمّ ذكر الله – ﷻ – أنّ هذا الكتاب هو كتاب محكم الآيات ، جليل القدر ، قد نظم نظما رصينا محكما ، فلا تعارض فيه ولا تناقض ، ومن تمام هذا الإتقان والإحكام تفصيل آياته ، والذي أحكم هذه الآيات ثمّ فصّلها هو الحكيم الخبير ، الذي أحاط بكلّ شيء علما .

إنّ روعة هذا الابتداء هي التي تذكي الشرارة في شعور المتلقّي ، وتجعل جميع طاقات عقله ، وإحساسات وجدانه بحالة استنفار وتأهّب قصوى واستعداد لسماع الخطاب وتدبّر الآيات . ويأتي بعد ذلك مباشرة تقرير الحقيقة الكبرى في حياة الإنسان وهي العقيدة ، فقد تضمّنت الآيات الأمر بالتّوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى ، وإثبات نبوّة محمّد – ﷺ – وما تضمنته رسالته من إنذار وبشارة ، والدعوة إلى الاستغفار والتوبة ، وبيان جزاء التائبين المستغفرين وتوعّد المتولّين بعذاب يوم كبير ، وأنّ المصير إلى الله ، وهو ذو القدرة المطلقة والسلطان الشامل . [3]

ثانيا ــ صورة لشمول العلم الإلهي تعجز الألباب :

وذلك قوله – تبارك و تعالى – : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾[هود : 5،6].

فبعد إعلان خلاصة الكتاب الذي أُحكمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيم خبير، يصف الله– ﷻ– حال فريق من النّاس في مواجهتهم وتلقّيهم لآي الكتاب المبين " ويصوّر الوضع الحسّي الذي يتّخذونه والحركة الماديّة المصاحبة له ، وهي إحناء رؤوسهم وثني صدورهم للتّخفّي ، ويكشف عن العبث في

---

1) الصّناعتين للعسكري ، ص437 .

2) مباحث في علوم القرآن ، صبحي صالح ، ص246 .

3) انظر : في ظلال القرآن ، 4/ 1852 .

تلـــك المحاولـــة وعـــلم الله يُتابعهم في أخفى أوضاعهم ، وكلّ دابة في الأرض مثلهم يشملهم العلم اللطيف الدّقيق " . [1]

" والآيتان الكريمتان تستحضران مشهدا فريدا ترتجف له القلوب حين تتدبَّرُه وتتصوَّرُه ! ... ويالها من رهبة غامرة ، وروعة باهرة ، حين يتصوّر القلب البشري حضور الله – سبحانه – وإحاطة عـــلمه وقهـــره ، بينما أولئك العبيد الضّعاف يحاولون الاستخفاف منه وهم يُواجهون آياته يتلوها رســـوله ... ولا يكمـــل السّياق الآية حتّى يبيّن عبث هذه الحركة ، والله ، الذي أنزل هذه الآيات معهـــم حـــين يســـتخفون وحين يبرزون . ويصوّر هذا المعنى – على الطّريقة القرآنية – في صورة مـــرهوبة، وهم في وضع خفيٍّ دقيق من أوضاعهم ، حين يأوون إلى فراشهم ، ويخلون إلى أنفسهم ، والليـــل لهـــم ساتر ، وأغطيتهم لهم ساتر ، ومع ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر، يعلم في هذه الخلوة ما يسرّون وما يعلنون ... والله يعلم ما هو أخفى ، وليست أغطيّتهم بساتر دون عـــلمه ، ولكـــن الإنسان يحسُّ عادة في مثل هذه الخلوة أنّه وحيد لا يراه أحد . فالتعبير هكذا يلمس وجدانه ويوقظه ويهزُّه هزّةً عميقة إلى هذه الحقيقة التي قد يسهو عنها " . [2]

ثمّ يرســـم السّياق صورة أخرى لشمول العلم الإلهي والإحاطة الرّبانية بكل شيء : فما من دابّة في الأرض من هذه الدّواب – التي لا يدركها عدّ ولا يكاد يلّم بها إحصاء – إلاّ وعند الله علمها وعليه رزقها ، وهو – سبحانه – عليم بمقرّها ومكمنها ، بغدوّها ورواحها ، فكلُّ شيء مقيّد عنده في هذا العلم الدّقيق . " إنّها صورة مفصّلة للعلم الإلهي في حال تعلُّقه بالمخلوقات ، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول أن يتصوّرها في كيانه فلا يُطيق " . [3]

ثالثا ـ مشهد مؤثر للطوفان العظيم:

يـــبلغ نـــبض السورة أعلى مستوياته في ثنايا هذا المشهد الفريد الذي يبرز في هذه السورة بروزا مميّزا واضحا . [4] قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ﴾

1) المرجع السابق ، ص1855.
2) المرجع نفسه ، ص1856.
3) المرجع نفسه.
4) انظر : المرجع نفسه: ص1847 .

وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[هود:40...44].

" إنّ الهول هنا هولان : هول في الطبيعة الصّامتة ، وهول في النّفس البشرية يلتقيان ... وفي هذه اللحظة الرّهيبة الحاسمة يبصّر نوح ، فإذا أحد أبنائه في معزل عنهم ، وليس معهم ، وتستيقظ في كيانه الأبوّة الملهوفة ، ويروح يهتف بالولد الشارد ... ولكن البنوّة العاقّة لا تحفل بالأبوّة الملهوفة ، والفتوّة المغرورة لا تقدّر مدى الهول الشامل ... وإنّنا بعد آلاف السنين ، لنمسك أنفاسنا – ونحن نتابع السيّاق – والهول يأخذنا ونحن نتابع المشهد . وهي تجري بهم في موج كالجبال ونوح الوالد يبعث بالنّداء تلو النّداء . وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدّعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة ، وينتهي كلُّ شيء ، كأن لم يكن دعاء ولا جواب ! . وإنّ الهول هنا ليقاس بمداه في النّفس الحيّة – بين الوالد والمولود – كما يقاس بمداه في الطّبيعة ، والموج يطغى على الذّرى بعد الوديان . وإنّهما لمتكافئان ، في الطّبيعة الصّامتة وفي نفس الإنسان " . (1)

رابعا ـ صور رهيبة لعقاب القرى الظّالمة :

هذا مجال آخر يبدو فيه تأثير القرآن واضحا في النّفس ، نافذا إلى القلب ، وذلك في تصوير عمليات العقاب الاستئصالي ، وأخذ الله القرى الظّالمةَ ذلك الأخذَ الشّديد – بعدما عتَتْ عن أمر ربِّها ، وعصت رُسله– ، ثمّ التعقيب الرّائع بعد إيراد تلك القصص . حيث تُطالعنا الآيات الكريمة بصور تُرهب الحِسّ وتوقظ غفلة العقل .

فنقرأ في قصّة هود–عليه السلام –قول الله– ﷻ–: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ

1) في ظلال القرآن ، 4/ 1878 .

رَبَّهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : 58 ، 59 ، 60] .

" لقـــد نجا هود – عليه السلام – ومن آمن معه برحمة من الله ، وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حلّ بالمكذّبين . ووصْف العذاب بأنّه غليظ بهذا التصوير المجسَّم ، يتناسق مع الجوّ ، ومع القوم الغـــلاظ العتاة ... والآن وقد هلكت عاد يشار إلى مصرعها إشارة البعد ، ويسجَّلُ عليها ما اقترفت من ذنب ، وتشيّع باللّعنة والطّرد . " (1)

وفي قصّة صالح – عليه السلام – نقرأ قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود:66 ، 67 ، 68].

نجـــا نبيُّ الله صالح ومن آمن معه من الموت ومن خزي ذلك اليوم ، " فقد كانت ميتة ثمود ميـــتة مخزية ، وكان مشهدهم جاثمين في ديارهم بعد الصّاعقة المدوِّية التي تركتهم موتى على هيئتهم مشـــهدا مخزيًا ... ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ ... كأن لم يقيموا ولم يتمتّعوا ... وإنّه لمشهد مؤثّر ، وإنّهـــا للمسة مثيرة ، والمشهد معروض ، وما بين الحياة والموت – بعد أن يكون – إلاّ لمحة كومضة العـــين ، وإذا الحـــياة كلّها شريط سريع . ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ ... ثمّ الخاتمة المعهودة في هذه السورة : تسجيل الذّنب ، وتشييع اللعنة ، وانطواء الصّفحة من الواقع ومن الذّكرى ". (2)

وفي قصّة لوط–عليه السّلام– نقرأ قول الله– ﷻ–: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود :81 ، 82 ، 83] .

---

1) المرجع السابق ، ص 1900 .

2) المرجع نفسه ، ص1909 .

" فموعد الإهلاك هو الصّبح ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ سؤال لإنعاش نفس لوط بعد ما ذاق ، لتقريب الموعد وتأكيده ، فهو قريب مع مطلع الصّباح ... والمشهد الأخير مشهد الدّمار المروّع اللاحق بقوم لوط : ﴿ جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾وهي صورة للتّدمير الكامل الذي يقلب كلّ شيء ويغيّر المعالم ويمحوها " [1] ، ثمّ التعقيب على هذا المشهد في لهجة وعيد وتهديد للظالمين: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾.

ونقرأ – أيضا –في قصّة شعيب –عليه السّلام – قول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: 94 ، 95] .

جاء أمر الله لتحقيق وعده لرسله بنصرهم والذين آمنوا معهم ، فنجّى الله شعيبا والذين آمنوا معه ، تكلؤهم رحمة الله ويخفّهم رضوانه ، ويرفع السّتار على مصارع القوم الذين كذّبوا المرسلين ، فإذا بهم في ديارهم قد قبروا ، لا يُحَسُّ منهم من أحد ، ولا يسمع لهم ركزٌ ، ومضوا كما مضت قبلهم ثمود ... تشيّعهم اللّعنات ..

وبعد هذه الصّور الرّهيبة التي عرضتها السورة الكريمة لمصارع الأقوام والأمم السابقة ، وتلك المشاهد المروّعة التي تزحم النّفس والخيال ، بين طوفان غامر ، وعاصفة مدمّرة ، وصيحة مدوّية مزلزلة ، وخسف وقصف ، وقلب ورجم . في هذا الموضع – وقد بلغ العرض والتّصوير من القلوب والمشاعر أعماقها – يأتي التعقيب : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 100، 101، 102] ، والأخذ الأليم الشّديد في الدُّنيا علامة على عذاب الآخرة ، يراها من يخافون عذاب الآخرة ، أي الذين تفتّحت بصائرهم

---

1) في ظلال القرآن ، 4/ 1915 .

ليدركوا أنّ الذي يأخذ القرى بظلمها في هذه الحياة سيأخذها بذنوبها في الآخرة ، فيخافون هذا العذاب ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ [هود : 103] .

فأيّــة رهــبة ، وأيّ هول ، وأيّ وجل تتملاّه الفِطَر ، وتتشرّبه النّفوس ، وهي تطالع هذه الومضات المروّعة ، وصور الدّمار التي تقشعرُّ منها الجلود وتنقبض لها القلوب تحيق بالغابرين ، ملهبة للوجــدان ، مرعــبة للنّفس ... فترى الآذان مرهفة سامعة ، والأعين ذارفة دامعة ، والأفئدة واجفة خاشــعة ، وذلك شأن القرآن في آي الوعيد ، تقشعرُّ منه الجلود . فالحمد لله الذي ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [الزمر : 23] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

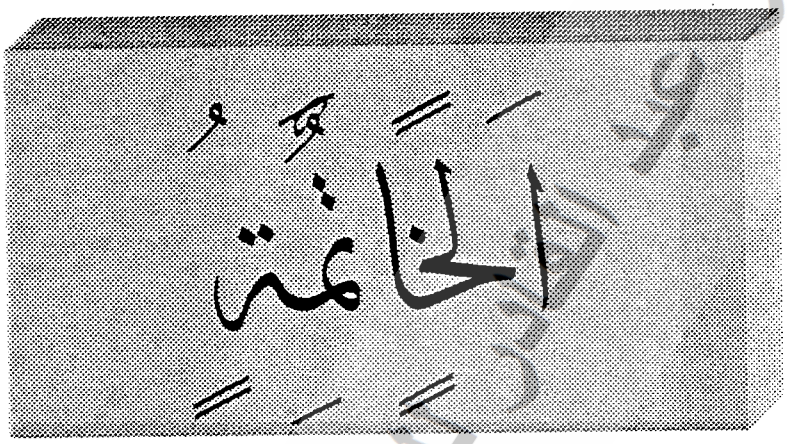

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في خـــتام هذا البحث أجد من بالغ الأهمية أن أذيّله بحوصلة تتضمّن خلاصة ما احتواه من أفكار ، ومفاهيم وأهمّ ما توصلتُ إليه من نتائج ، وأُجمل ذلك في ما يأتي :

أولا– علوّ منزلة القرآن البلاغية ، وسموّه في درجات الفصاحة والبيان إلى الحدّ الذي أعجز العـــرب وغيرهـــم ؛ فكان الدليلَ على صدق الرسالة الخاتمة ، وأنّه من لدن الحكيم الخبير ؛ وهذا ما يجعل معرفة إعجاز القرآن ضرورية لأنّه المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوّة .

ثانـــيا– الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم أبرز وجوه الإعجاز وأهمها ؛ لأنّه شامل لكل سور القـــرآن حتى أقصر سورة ، وقد تجلّت هذه الأهميّة في سورة هود التي لم تحتو –حسب علمي– على إعجاز علمي أو تشريعي ، ولكنها من الناحية اللغوية لبنة أساسية في إقامة صرح التحدي والإعجاز ، كما تتجلّى أهمية الإعجاز اللغوي في أنّه الوجه الذي وقع به التحدّي لمن أُنزل إليهم القرآن أول مرّة وما قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:13] إلا دليل على أنّ إعجاز القرآن في لغته وبلاغته وبيانه هو أظهر وجوه الإعجاز وأبينها وأهمها .

ثالـــثا– تمـــيّز الأداء القرآني عن طرائق البشر في الأداء التعبيري ، وتفرّده بخصائص التعبير المعجـــز ، واستحواذ العرض القرآني على جمال التقديم وروعة الإخراج وفنيّة التصوير ، ما جعل من القـــرآن الكريم تحفة فنيّة خالدة تتأثّر بها النفوس وتطرب لها الأفئدة . وهو ما تشهد به آيات سورة هود التي بلغت القمّة في روعة العرض والأداء والتأثير .

رابعا–إنّ ما تضمنته سورة هود من روائع الإعجاز ولطائف التعبير حقيق بالتأمل والتدبر ، فـــإنّ من يقف على مظاهر هذا الإعجاز يدرك أنّ القرآن الكريم وحي ، ما كان أن يفترى من دون الله . وبذلك يتحقق هدف من أسمى أهداف القرآن حين يستشعر المرء في نفسه عظمة المولى سبحانه وقدرته وسعة علمه وفضله ، فيكون من المخبتين . قال الله تعالى :﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .[الحج: 54].

خامسا– إنّ الإعجاز اللغوي في سورة هود لا يبدو في مظهر واحد بل هو متعدد الوجوه، وقـــد حاولـــتُ في هـــذا البحث إبراز أهم تلك الوجوه والمظاهر بدءا بدراسة الإعجاز في الحروف والمفـــردات والفواصـــل ، ثمّ الأساليب البيانية ، ثم دراسة الإعجاز في التعبير القرآني جملة من حيث

الأداء والعـــرض والتأثير ؛ ليتبيّن أنّ الإعجاز شامل لكل أجزاء النصّ القرآني المقدّس من الحرف إلى العبارة . ومن الجزء إلى الكل.

ولا يفوتـــني أن أؤكّـــد في هـــذه الخاتمة أنّ ما جاء في هذا البحث لم يكن بِدعا مما طرقه الباحـــثون قبلي من مباحث إعجاز القرآن الكريم ، بيد أنّي حاولت جهدي أن أكسوَه بحلّة جديدة وأقدّمه في ثوب قشيب وذلك من خلال :

1- محاولة استقصاء مظاهر الإعجاز اللغوي في سورة متكاملة من القرآن الكريم ، وهو ما لم أجـــده -فـــيما تسنّى لي الاطلاع عليه من دراسات وأبحاث حول موضوع الإعجاز القرآني- ، حيـــث كانـــت أغلب الدراسات تتمّ بطريقة انتقائية تجوب مختلف سور القرآن لتختار طَرفا من آي الذكـــر الحكيم ابتغاء التحليل والدراسة ، وإخال أنّ دراسة الإعجاز في سورة واحدة ونصّ متكامل يحقق فائدة أكبر ويكون أدعى للفهم ولتقصي مظاهر الإعجاز . وحتّى الدراسات التي تناولت سورة كاملـــة اقتصـــر أصحابها على وجه واحد من وجوه الإعجاز ، كأن يكتفي الباحث بدراسة أسلوب القصّة ، أو أسلوب الجدل ، أو غير ذلك من أساليب البيان .

2- محاولـــة إضفاء صبغة فنية على البحث عن طريق تتبع مظاهر الجمال اللغوي وتذوّق بلاغة القـــرآن ، مما يحبّب إلى النفوس الاطلاع على هذا الجانب المهم من الدراسات القرآنية ، فطالما وُسمت دراسات الإعجاز اللغوي في القرآن بوصمة الصعوبة،وصُبغت بأصباغ التعقيد على أيدي المتكلّمين – وإن كانوا أولي فضل عظيم بما قدّموه من جهود في خدمة البلاغة وقضايا إعجاز القرآن – .

3- محاولـــة الربط بين وجوه عدّة من إعجاز القرآن وإدراجها متناسقة مع الوجه الرئيسي الذي بُني عليه البحث ، فقد تطرّق البحث إلى الإعجاز في التأثير النفسي وهو أحد أبرز وجوه إعجاز القـــرآن مـــع ربطـــه باللغة ؛ باعتبارها وسيلة هذا التأثير . والأمر نفسه بالنسبة للإعجاز القصصي والإخبار عن الغيب .

وإنّـــي لأرجو أن يكون هذا البحث على تواضعه بذرة لشجرة طيبة تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها ، وأن يكون باكورة دراسات أخرى تبحث مظاهر الإعجاز في سور القرآن الكريم خدمة لكتاب الله ولغته الشريفة.

وفي المنـــتهى ، أقف بباب أكرم من سُئل ، وأعظم من رُجي وأُمِل ، فأدعوه سبحانه بأسمائه الحســـنى وصـــفاته العلى أن يرزقني الإخلاص والصواب في القول والعمل ، وأن ينفع بهذه البضاعة المزجاة ، إنّه ولي ذلك والقادر عليه . والحمد لله ربّ العالمين .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس الأشعار

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

-حسب ترتيب المصحف-

السورة	رأس الآية	رقمها	الصفحة
البقرة	﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا...﴾	23	7
	﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾	204	58
النساء	﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ...﴾	82	ث/107
	﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ...﴾	166	18
الأنعام	﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا...﴾	80	40
	﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا... ﴾	115	41
الأعراف	﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	176	78
الأنفال	﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ... ﴾	31	6
يونس	﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ... ﴾	38	7
	﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾	2	13
	﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ ...﴾	37	58
هود	﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ...﴾	1	126/46/22/13.
	﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ ...﴾	2	/109/106/105/65/47 126.
	﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ۚ...﴾	3	126/106/105/66.

	﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ..﴾	4	.105/66/65
	﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ...﴾	5	.127/65/51/38/12
	﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾	6	127
	﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ..﴾	7	.99 /89/ 66
	﴿ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ..﴾	8	.98 /63/ 49
	﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ...﴾	12	.67 / 33
	﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ..﴾	13	/92 /59 /33 /23 /7 /5 .134
	﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ...﴾	14	.92 /59 /23
	﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ..﴾	17	.101 /51 /13
	﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا...﴾	18	.113 /51
	﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾	19	47
	﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ..﴾	20	47
	﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾	22	47
	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ..﴾	23	.52 /36
	﴿ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ..﴾	24	.94 /40
	﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ..﴾	25	.116 /106 /64 /47
	﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ..﴾	26	.109 /106 /64
	﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ...﴾	27	.67 /39
	﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ..﴾	28	.109 /68 /40 /21
	﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا...﴾	29	.109 /68 /34
	﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ...﴾	30	.68
	﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ...﴾	31	.68 /30
	﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا..﴾	32	.104 /68 /55

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

	﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ..﴾	33	68/ 104.
	﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ...﴾	34	66/ 68/ 91/ 104.
	﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ..﴾	35	50/ 91.
	﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ...﴾	36	30/ 117.
	﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا...﴾	37	49/ 117.
	﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ...﴾	38	39/ 81/ 93/ 117.
	﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ...﴾	40	35/ 48/ 52/ 81/ 128.
	﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا...﴾	41	129.
	﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ...﴾	42	38/ 81/ 100/ 129.
	﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ...﴾	43	81/ 129.
	﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي...﴾	44	31/ 81/ 100/ 129.
	﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا...﴾	47	36،37/ 109.
	﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ..﴾	48	20
	﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ...﴾	49	74/ 75/ 116.
	﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا...﴾	50	61/ 65/ 105/ 109.
	﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا...﴾	51	34.
	﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ... ﴾	52	106
	﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ..﴾	53	61
	﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ...﴾	54	32/ 61/ 92/ 117.
	﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ.﴾	55	61/ 92/ 110/ 117.
	﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم...﴾	56	61/ 110/ 117.
	﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا...﴾	58	52/ 87/ 118/ 130.
	﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ...﴾	59	87/ 118/ 130.

	﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾	60	11/ 41/ 118/ 130.
	﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا...﴾	61	65/ 106/ 110.
	﴿ قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا...﴾	62	62/ 65.
	﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ..﴾	63	49/ 62/ 65/ 110.
	﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ...﴾	64	26/ 65/ 97/ 118.
	﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ..﴾	65	90
	﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا...﴾	66	18/ 118 130.
	﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ..﴾	67	118/ 130.
	﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا...﴾	68	119/ 130.
	﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ..﴾	69	52.
	﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ...﴾	70	52،53.
	﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا...﴾	71	53.
	﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ...﴾	72	79.
	﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ...﴾	74	55/ 56/ 93.
	﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾	75	65/ 79.
	﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا...﴾	77	119
	﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ...﴾	78	38
	﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ...﴾	80	119
	﴿ قَالُوا يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ...﴾	81	93/ 119/ 130.
	﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا...﴾	82	86/ 119/ 130.
	﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ...﴾	83	86/ 119/ 130.
	﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾	84	65/ 110.
	﴿ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ...﴾	87	46/ 120.
	﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ...﴾	88	110.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم...﴾	89	.102
﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ...﴾	90	.120 /106 /88
﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ...﴾	91	110
﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ...﴾	92	.120 110 /49 /37
﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ...﴾	93	88
﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا...﴾	94	131
﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ...﴾	95	.131 /120
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا...﴾	96	.114 /79
﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ..﴾	97	.114 /79
﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ...﴾	98	.114 /93 /80 /79 /50
﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾	99	.114 /41
﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ...﴾	100	.131 /75
﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ...﴾	101	.131 /86،87 /75
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ...﴾	102	/114 /89 /88 /76 /66 .131
﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ...﴾	103	.132 /114 /89 /67 /66
﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾	104	.114 /89 /66
﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ...﴾	105	.114 /89
﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ...﴾	106	.114
﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ...﴾	107	.114
﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ...﴾	108	.115
﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ...﴾	109	.66
﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ..﴾	110	.87
﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ..﴾	111	.89

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

	﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ..﴾	112	.100
	﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ...﴾	113	.92
	﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ...﴾	114	.92 /12
	﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾	115	.89 /75
	﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ..﴾	116	.98 /87 /75
	﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ...﴾	117	.87
	﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ... ﴾	120	.126 /103 /76 /75
	﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ... ﴾	121	.50
	﴿ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾	122	.51
	﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. ﴾	123	.111 /110 /92 /49،50
يوسف	﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ. ﴾	3	.77 /70
إبراهيم	﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ. ﴾	4	57
	﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ. ﴾	7	خ
النحل	﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ... ﴾	103	6
	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ...﴾	107	47
الإسراء	﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾	109	47
	﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ...﴾	88	10
الكهف	﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ..﴾	54	47
	﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾	56	58
مريم	﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ...﴾	97	58

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأنبياء	﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ... ﴾	5	3
الحج	﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ... ﴾	54	ب/ 134.
المؤمنون	﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ... ﴾	27	35
الفرقان	﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا.. ﴾	5	6
	﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم.. ﴾	52	22
العنكبوت	﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ.. ﴾	50	.4
	﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ... ﴾	51	.4
الأحزاب	﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ... ﴾	19	.58
سبأ	﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ... ﴾	1	46
فاطر	﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾	19	.94
	﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾	20	94
	﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾	21	94
	﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾	22	94
يس	﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ ... ﴾	81	66
الزمر	﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا... ﴾	23	.132 /125
غافر	﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... ﴾	58	94
فصلت	﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ... ﴾	15	52

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ..﴾	26	124
الزخرف	﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ...﴾	58	5
الجاثية	﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا...﴾	24	62
الطور	﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ...﴾	33	6
	﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾	34	6
الحشر	﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ...﴾	21	124
القلم	﴿ ن ۚ وَٱلْقَلَمِ... ﴾	1	22
المدثّر	﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾	24	122

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث الشريفة

❖ " ما من الأنبياء نبي إلاّ أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنّما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "..... 3

❖ " إِنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرًا "..... 123

❖ " شيّبتني هود،والواقعة،والمرسلات،(وعمّا يتساءلون)،و(إذا الشمس كوِّرت)"..... 126

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأشعار

البيت	قائله	بحره	الصفحة
■ الذكرُ آيةُ ربّك الكبرى التي فيـــها لباغي المعجزاتِ غناءُ صَدْرُ البيانِ له إذا التَقَت اللُّغى وتفرَّدَ البلـــغاءُ والفـــصحاءُ نُسخَتْ به التوراة وَهيَ وضيئة وتخلّفَ الإنـــجيلُ وَهْوَ ذُكاءُ	أحمد شوقي	الكامل	4
■ أثنى على نفسه سبحانه بثبو ت الحمد والسلب لما استفتح السورا والأمر شرط الندا التعليل والقسم الدُّ عَا حروف التهجي استفهم الخبرا	شهاب الدين المقدسي	البسيط	21
■ فذاك و لم يعجز من الموت ربّه ولكن أتـــاه الـــموت لا يتأبّقُ	الأعشى	الطويل	2
■ لا يصلح النفس إن كانت مصرّفة إلا التنـــقل من حال إلـــى حال	غير معروف	البسيط	85
■ جاء النبيُّون بالآيات فانصرمتْ وجـــئـــتنا بحكيـــمٍ غيرِ منصـــرمِ آياته كلما طال المدى جدد يزينهـــنَّ جلالُ العـــتـــقِ والقـــدمِ	أحمد شوقي	البسيط	3
■ حُديّا الناس كلّهم جميعا مقارعةً بنيـــهم عن بنـــينا	عمرو بن كلثوم	الوافر	6

فهرس المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم -برواية حفص عن عاصم-

01. الإتقان في علوم القرآن : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، 1418هـ - 1997م.

02. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط: 2 ، 1411 هـ ـ 1990 م.

03. الأساس في التفسير، سعيد حوى ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة، ط:5 ، 1419هـ ـ 1999م ..

04. أسلوب المحاورة في القرآن: د. عبد الحليم حفني ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ط:2 ، 1985م.

05. الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، عمر السلامي ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، 1980م.

06. إعجاز القرآن أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق:عماد الدين أحمد حيدر،مؤسسة الكتب الثقافية ،ط:1 ،1411هـ- 1991م.

07. إعجاز القرآن والبلاغة القرآنية ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:1، 1421هـ-2000م.

08. الإعجاز في نظم القرآن ، د .محمود السيد شيخون ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ط :1، 1398هـ - 1978م

09. الإعجاز اللغوي في قصص نوح-عليه السلام - في القرآن ، د. عوذة الله منيع القيسي ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان، الأردن ، ط:1، 1422هـ ـ 2002م.

10. بحوث في قصص القرآن السيد عبد الحافظ عبد ربه ، دار الكتاب اللبناني ،بيروت ، لبنان ط: 1، 1972م.

11. البديع، أبو العباس عبد الله بن المعتز ، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت-دت-.
12. بصائر ذوي التمييز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي،المكتبة العلمية ، بيروت-دت-.
13. البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت -دت-.
14. البنية السردية في القصص القرآني ، طول محمد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر-دت-.
15. البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني المعروف بالجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،دار الفكر، بيروت ، لبنان ط:4 -دت-.
16. بينات المعجزة الخالدة، حسن ضياء الدين عتر ، دار النصر، سوريا ، ط :1، 1395هـ - 1975م.
17. التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية ، تونس ، 1984.
18. التصوير الفني في القرآن سيد قطب ، دار المعارف، القاهرة ، ط :9 ، دت.
19. التعريف بالقرآن والحديث ، محمد الزفزاف ، مكتبة الفلاح ،الكويت ، ط:4 ، 1404هـ-1984م.
20. تفسير البحر المحيط محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي،دار الفكر للطباعة والنشر، ط:2 ، 1403 هـ -1983م.
21. تفسير القرآن العظيم عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، لبنان -دت-.
22. التفسير الكبير محمد فخر الدين الرازي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ط:3 -دت-.
23. تفسير المنار محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط:2 ،-دت-.
24. تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق :عماد الدين أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط:1 ، 1407هـ-1987م.
25. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الخطابي الرماني ، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق : محمد أحمد خلف الله و محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط:4 ،-دت-.
26. الجدل في القرآن الكريم: فعاليته في بناء العقلية الإسلامية ، د.محمد التومي ، شركة الشهاب للنشر والتوزيع ، الجزائر.

27. جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير ، أحمد ياسوف ،دار المكتبي ، سوريا ، ط:1 ، 1415هـ ـ 1994م.

28. دراسات حول القرآن الكريم ، د. اسماعيل أحمد الطحان ، مكتبة الفلاح ، الكويت ،ط:2 ، 1408هـ-1988م.

29. درة التنزيل وغرّة التأويل (برواية أبي الفرج الأردستاني) ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط:3 ، 1979م.

30. دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، تعليق : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط:2 ، 1410 هـ ـ 1989 م.

31. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، ابو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي ، دار الفكر ، بيروت ، 1403هـ - 1983م.

32. سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (279هـ) ، دار الفكر ، بيروت ، 1414 هـ-1994م.

33. سيرة النبي- ﷺ- أبو محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، 1401هـ -1981م.

34. الشوقيات ، أحمد شوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان، ط:10 ، 1404هـ-1984 م .

35. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (256هـ) ،مراجعة وضبط : محمد علي قطب و هشام البخاري ، المكتبة العصرية ، بيروت، 1422هـ -2001م .

36. الصناعتين الكتابة والشعر ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1406هـ- 1986م.

37. الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي ، دار عمار للنّشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط:2، 1421هـ ـ2000م.

38. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن القيم إمام الجوزية ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط:2،1408هـ 1988م.

39. في ظلال القرآن سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط:10، 1401هـ-1981م .

40. القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي، دار الكتاب العربي -دت-.

41. قبس من نور القرآن القرآن الكريم ، محمد علي الصابوني، دار السلام ، بيروت،لبنان ، ط:1، 1418هـ - 1997م.

42. القرآن وأنباء الأنبياء في الحديث عن المعجزة الخالدة وأولي العزم من الرسل ، محمد فتحي حافظ قورة ، مكتبة مصر ، ط:1-دت-.

43. القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته فضل حسن عباس ، شركة الشهاب ، الجزائر.

44. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، محمود بن عمر الزمخشري ، دار الكتاب العربي ، -دت-.

45. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، -دت-.

46. مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ، دار العلم للملايين،بيروت، ط: 18، يناير 1990م.

47. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:1 ، 1413هـ - 1993م.

48. مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، أبو البركات عبد الله النسفي، دار الفكر ، -دت-.

49. مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، دار المعارف ، القاهرة ، ط :7 ، -دت-.

50. مع الأنبياء في القرآن الكريم ، عفيف عبد الفتاح طبارة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان، ط:17 ، آذار (مارس) ، 1989.

51. معترك الأقران في إعجاز القرآن ،جلال الدّين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق: علي محمد البجاوي ،دار الفكر العربي، -دت-.

52. المعجزة الكبرى ،محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، -دت-.

53. مفتاح العلوم أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، تعليق : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط: 2 ، 1407 هـ - 1987م.

54. المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق وضبط: محمّد خليل عيتاني ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط:1 ، 1418هـ - 1998م.

55. مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب ، دار النشر ، القاهرة ، ط : 4 ، 1414هـ ، 1993م.

56. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ، تحقيق: سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان، ط:1 ، 1403 هـ -1983 م.

57. من أسرار التعبير في القرآن -حروف القرآن د.عبد الفتاح لاشين، شركة مكتبات عكاظ ، المملكة العربية السعودية ،ط:1، 1983هـ -1403م .

58. من أسرار التعبير في القرآن –صفاء الكلمة عبد الفتا ح لاشين ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، 1403هـ ـ 1983 م.

59. من أسرار التعبير في القرآن –الفاصلة القرآنية–، عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ للنشر، الرياض، 1402هـ،1982م.

60. من بلاغة القرآن القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث ، بدرية بنت محمد بن حسن العثمان، دار الراية ، الرياض ، ط: 1 ، 1417هـ.

61. من بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، فاضل صالح السامرائي ،دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط:2 ، 1422ه -2001م.

62. منهج القصة في القرآن محمد شديد ،شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية، ط:1 ، 1404هـ - 1984م .

63. النبأ العظيم محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، الكويت ، ط:7 ، 1413هـ-1993.

64. نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى،مكتبة الخانجي،القاهرة،ط:3، 1993م.

65. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، محمد فخر الدين الرازي ، تحقيق: د.شيخ بكري أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط:1 ، أكتوبر، 1985 .

66. واقعية المنهج القرآني. ، توفيق محمد سبع ، المكتبة العصريّة ، بيروت ، 1393هـ - 1973م.

▪ الدوريات

- مجلة جامعة الزيتونة (حولية علمية إسلامية تصدر عن جامعة الزيتونة بتونس) ، طبع: شركة فنون الرسم والنشر والصحافة ، القصبة ، تونس ، العدد الثالث، (1414هـ 1415هـ/ -1994م).
- مجلة الدراسات القرآنية - نشر: مركز الدراسات الإسلامية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية، لندن، العدد الأول ، 1999 م .
- مجلّة كليّة الدّعوة الإسلاميّة ، طرابلس ، الجماهيرية الليبيّة ، العدد الثالث عشر، 1996 .

فهرس الموضوعات

مقدمة ..... أ - د

مدخل 1

المبحث الأول : الإعجاز والتحدي 2

المطلب الأول :مفهوم الإعجاز ووجوهه 2

أولا – مفهوم الإعجاز 2

1 تعريف المعجزة 2

أ – لغة 2

ب- اصطلاحا 2

2- معجزة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم- 3

ثانيا – وجوه الإعجاز في القرآن 4

المطلب الثاني : التحدي والمعارضة 5

أولا – مفهوم التحدي ومستوياته 5

1- تعريف التحدي..... 5

أ- لغة 5

ب- اصطلاحا 6

2- أسباب التحدي ودواعيه 6

3- مراتب التحدي ومستوياته 6

أ- المرتبة الأولى 6

ب- المرتبة الثانية 7

ت- المرتبة الثالثة 7

ثانيا : المعارضة 8

1- تعريفها 8

أ – لغة 8

ب- اصطلاحا 8

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني : بين يدي السورة 11
المطلب الأول : التسمية 11
المطلب الثاني : فترة النزول..... 11
المطلب الثالث : مكيُّها ومدنيها 12
المطلب الرابع : علاقتها بما قبلها 13
المطلب الخامس : قطاعات السورة ومحاورها الكبرى 14
المطلب السادس : أغراض السورة 14

الفصل الأول : الإعجاز في الحروف والمفردات والفواصل 16
المبحث الأول : الإعجاز في الحروف 17
المطلب الأول : ما يتعلق بصفات الحروف 17
أولا- اختلاف الحروف وتنوّعها حسب مواقف التعبير..... 18
ثانيا- تلاؤم الحروف 19
ثالثا-كثرة حروف الكلمة 20
المطلب الثاني : ما يتعلق بالحروف المقطعة 21
أولا - أصناف الافتتاح في القرآن 21
ثانيا - علاقة الحروف المقطّعة بالإعجاز 22
ثالثا - تأويل أهل العلم لهذه الحروف 23
1- الاتجاه الأول 23
2- الاتجاه الثاني 24
المبحث الثاني : الإعجاز في المفردات 28
المطلب الأول : أهمية المفردة وعناية القرآن بها 28
المطلب الثاني : خصائص المفردة القرآنية في سورة هود 30
أولا - جمال المفردة وحسن وقعها في السمع 30

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا – الدّقة المتناهية والإحكام البالغ 32
1- الدقة في الوضع 32
2- الدقّة في الاختيار 33
ثالثا – الإيحاء والتصوير الفني 36
رابعا – التكرار والحذف 39
المبحث الثالث : الإعجاز في الفواصل 42
المطلب الأول : جمال الفاصلة ودورها في التأثير النفسي 43
المطلب الثاني : القيمة المعنوية للفاصلة وعلاقتها بما قبلها. 44
أولا- التمكين 45
ثانيا- التوشيح 48
ثالثا- التصدير 50
رابعا- الإيغال 51

الفصل الثاني : الإعجاز في الأساليب 54
المبحث الأول : أسلوب الجدل في سورة هود 55
المطلب الأول : مفهوم الجدل وأنواعه 55
أولا- مفهوم الجدل 55
ثانيا- أنواع الجدل 56
ثالثا- الجدل القرآني وجه من وجوه الإعجاز 56
المطلب الثاني : دواعي الجدل في القرآن خلال سورة هود 57
أولا : مواجهة جدال المشركين وإبطاله 57
ثانيا : نقد القديم ونقض الخرافة 59
1- نقد العقيدة السائدة وبيان انحرافها 60
2- مناقشة منكري 62

ثالثا : بناء المفاهيم الصحيحة 64
1- بناء عقيدة التوحيد 64
2- بناء عقيدة الإيمان بالبعث 65
رابعا : دحض الشبهات 66
المبحث الثاني : أسلوب القصّة في سورة هود 70
المطلب الأول : أنواع القصّة القرآنية في سورة هود 71
المطلب الثاني : أغراض القصّة القرآنية في سورة هود 72
أولا - إثبات الوحي والرسالة..... 73
ثانيا- تثبيت النبي –صلى الله عليه وسلم – والتسرية عنه 74
ثالثا- الإنذار والاعتبار 75
رابعا- بيان إعجاز القرآن 76
المطلب الثالث : خصائص ومميزات القصة القرآنية في السورة 77
أولا : الخصائص الفنية في القصّة 78
1- تنوع طريقة العرض 78
2- تنوع طريقة المفاجأة 79
3- ترك الفجوات بين المشاهد 80
4- خاصية التصوير الفني 80
ثانيا : آثار خضوع القصة للغرض الديني 82
1- التكرار 82
2- الإيجاز 82
3- بث العبر والعظات 83
المبحث الثالث : أسلوب الالتفات وأسلوب التوهيم 84
المطلب الأول : مفهوم الالتفات وفوائده 84
أولا- مفهوم الالتفات 84
ثانيا- شروطه 84
ثالثا- فوائده 85

المطلب الثاني : أقسام الالتفات وضروبه 86
أولا – الانتقال من التكلم إلى الخطاب 86
ثانيا– الانتقال من التكلم إلى الغيبة 87
ثالثا– الانتقال من الخطاب إلى التكلم 88
رابعا– الانتقال من الخطاب إلى الغيبة 88
خامسا– الانتقال من الغيبة إلى التكلم 89
سادسا– الانتقال من الغيبة إلى الخطاب 90
المطلب الثالث : ما يقرب من الالتفات 90
أولا– نقل الكلام إلى غيره 90
ثانيا– الانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى غيره 91
ثالثا– الانتقال في الكلام من زمن إلى آخر 92
أ– من المستقبل إلى الأمر 92
ب– من المستقبل إلى الماضي 92
ت – من الماضي إلى المضارع 93
المطلب الرابع : أسلوب التوهيم 94
أولا– مفهومه 94
ثانيا – فائدته 94
ثالثا – نموذج من السورة 94

الفصل الثالث : الإعجاز في الأداء والعرض والتأثير 97
المبحث الأول : الإعجاز في الأداء القرآني 98
المطلب الأول : تنوع طرائق الأداء التعبيري واستيفاء القرآن لها 98
المطلب الثاني : خصائص الأداء التعبيري في سورة هود 99
أولا– الميزة الأولى 99
ثانيا– الميزة الثانية 101
ثالثا– الميزة الثالثة 103
رابعا– الميزة الرابعة 105

المبحث الثاني : الإعجاز في العرض القرآني 108
المطلب الأول : في عرض عقيدة التوحيد 108
المطلب الثاني : في عرض مشاهد القيامة 111
أولا- المشهد الأول 113
ثانيا- المشهد الثاني 114
ثالثا- المشهد الثالث 114
المطلب الثالث : في عرض مشاهد الغابرين 116
المبحث الثالث : الإعجاز في التأثير القرآني 122
المطلب الأول : سحر القرآن وسر تأثيره في القلوب 122
المطلب الثاني : تأثير القرآن في نفوس أعدائه وأوليائه 124
المطلب الثالث :نماذج وصور للتأثير القرآني خلال سورة هود 126
أولا – حسن ابتداء وبراعة الاستهلال 126
ثانيا – صورة لشمول العلم الإلهي تعجز الألباب..... 127
ثالثا – مشهد مؤثر للطوفان العظيم 128
رابعا – صور رهيبة لعقاب القرى الظالمة 129
الخاتمة 133
الفهارس..... 136
فهرس الآيات القرآنية 137
فهرس الأحاديث الشريفة 145
فهرس الأشعار 146
فهرس المصادر والمراجع 147
فهرس الموضوعات 152

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية